

العرب

أحمد زكي الملقب بشيخ العذوبة

بقلم
أنور الجندي

والإرشاد القومي

حزب العامة

والطباعة والنشر

أعلام العَدَب

٢٩

أحمد زكي
الملقب بشيخ العُدوبة
حياته - آراؤه - آثاره

بقلم
أنور الجندى

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للأليف والترجمة والطباعة والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

في رحلة طويلة خلال البحث عن « معالم الأدب العربي المعاصر » منذ فجر النهضة الفكرية العربية التي بدأت قبيل منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٨٤٠ — ١٩٤٠) تبدو معالم شخصيات متعددة من أعلام الفكر والوطنية والكفاح السياسي والاجتماعي والأدبي .

ومن حق هؤلاء النوابغ علينا أن نكشف عنهم ، ونؤرخ لهم ، وندرس أنتاجهم وآثارهم ، ونقدمهم لجيلنا المعاصر المتعطش الى صور البطولة في مختلف الميادين ، والى روائع الفكر وبدائع الفنون الأدبية ، من مساجلات وتحقيقات . ولقد حفل تاريخنا في هذه الفترة بأعلام بارعين صادقين في إيمانهم بأممتهم ، وبلغتهم ، وبتاريخهم ، غير أن بعضهم آثر العمل دون الشهرة ، وبعضهم لمع لمعانا خاطفا خلال حياته ، فلما قضى غاب في أعماق الأحداث ، ولم يجد من يؤرخ له ، أو يكشف عن فضله وأثره . ولقد تابعت خلال بحوثي الطويل عبيدا من هؤلاء النوابغ الذين لم يلتفت اليهم حتى الآن أمثال : أحمد تيمور ، وعبد العزيز الثعالبي ، وفريد وجدي ، ومصطفى الغلاييني ، وأحمد شفيق ، ومحمد مسعود ، وداود بركات ، ورشيد رضا ، وشيلي شميل ،

وطاهر الجزائرى ، وعبد العزيز جلويش ، وأمين الرافعى ،
وعبد الحميد بن باديس ، ولطفى جبعة ، ومارون عبود ،
وتقولا حداد ، وغيرهم .

ومن بين هؤلاء النوانخ أحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ
العروبة ، والرائد المصرى الأول لآحياء الآداب العربية ، والبحث
عن ذخائر المخطوطات وجمعها أو تصويرها بالفوتوغرافيا وتحقيقها،
والعلامة الباحث الذى حقق عشرات القضايا والمواقف والمواقع
والأعلام وأسماء البلدان وكلمات اللغة .

وهو أول مصرى عربى فى العصر الحديث زار « الأندلس »
وأطلق عليها ذلك الاسم الذى اشتهرت به من بعد (الفردوس
الاسلامى المفقود) وصاحب المكتبة الزكية التى تضم ١٨ ألف
مجلد ، وسكرتير الجامعة المصرية القديمة ، وأول من أدخل
« الترقيم » فى كتابتنا العربية الحديثة ، واختصر حروف، الطباعة،
والظوائف الرحالة من الآستانة الى برلين الى باريس الى لندن
من أجل التراث ، وصاحب النسخة الأولى أو الثانية على الأقل
من عشرات الكتب العربية المفقودة ، والرجل الذى صعد الى
القلاع فى كل بلد ألم بها وزار المساجد والكنائس والمقابر ، وقطع
الأرض من طولها والعرض ، محققا للمواقع والآثار ، والذى فتح
له قصر «طوب قبو» بعد أربعة قرون وستة أعوام لنقل المخطوطات
العربية ، وصديق المستشرقين فى أنحاء المعمورة ، والعالم الصريح
الذى لا يتابع ولا يمالئ .

وهو الى ذلك سكرتير مجلس النظار ، والمترجم الأبرع من

الفرنسية ، والمجيد لعديد من اللغات ، وداعية الأمة العربية من أجل الحفاظ على مقومات الفكر العربى ، وجعلها أساسا للنهضة الفكرية المتطورة مع الزمن ، المتصلة بالحضارة العالمية .

والكاتب المنشئ الغزير الانتاج ، الذى أثر الصحافة اليومية على المجلات والتأليف ، وصاحب الأسلوب الجامع بين العلم والطرافة والفكاهة والسخرية ، والذى فاجأ القراء فى خلال أربعين سنة بعشرات من الآراء المثيرة التى حققها ، والذى ترك أكثر من ألف مقالة مبشرة فى بطون الصحف والمجلات .

ومن هنا كانت مشقة البحث ، فان أحمد زكى باشا لم يترك الا كتيبات صغيرة قليلة كتبها مبكرا ، وهى ليست أكثر من تقارير عن بعض أعماله ، أو محاضرات قليلة من آثاره ، لذلك كان لابد من البحث وراء نتاجه وتتبعه فى بطون الصحف اليومية والمجلات . ولقد ظللت أكثر من خمسة عشر عاما ، وأنا أقرأ آراء متناثرة خلال بحثى فى (معالم الأدب المعاصر) واعداد موسوعتى عنه ، وكان دائما يلفت نظرى ، ويشعرنى بأثره الواضح ، فتحقيقاته دائما جديدة ، وآراؤه مثيرة ، وطريقته فى عرضها تلفت النظر ، وازدهاؤه وثقته بما يقول تترك أثرا فى نفس الباحث لا يذهب ، وهو الى ذلك قد توفى منذ عام ١٩٣٤ فلم تكتب عنه الا كلمات قليلة ، بعد وفاته مباشرة ، ثم مضت هذه السنوات دون أن يذكره ذاكر ، وانطوت آثاره التى لم يستكملها ، فلم يعن بها أحد أو يبحث عنها ، كل هذا دفعنى الى أن أرفع الركام والتراب عن وجه هذا الباحث العالم ، الذى ظل يكتب ويخطب ويحاضر أكثر

من أربعين عاما ، وكان مرجعا لكل باحث أو سائل ، وكان يئته
قبلة كل رائد من العرب أو من أهل الشرق والغرب .
وقد أجهدى البحث وراء آثاره ، لولا أن لدى فهرسا كاملا
لأبحاث الأهرام ، أعاننى على مقالاته بها — وهى أغلب محصوله
فى الحقيقة — وتابعت البحث وراءه فى المؤيد والمقظم والبلاغ ،
كما تابعت فى مراجعة شاملة للهلل والمقتطف والمشرق والمقتبس ،
ومخطوطات الخزانة الزكية وأضيئرها .. حتى تمكنت بحول الله
أن أرسم هذه « الصورة » عن حياته وأدبه ، وأنا أعترف بعدئ
أنها ليست الا رسما ضئيلا لناطقة عملاق ، وباحث محقق ، وهب
كل حياته لعمله وعلمه ، وما حاولتى لايراد بعض النماذج لكتابات
وآرائه الا محاولة لالقاء الضوء على جانب ضخم غزير عميق من
تراثنا الفكرى والتاريخى المعاصر المدفون الجدير بأن يكشف
عنه فيجمع ويذاع فى الناس من جديد ، حتى ينتفع به الباحثون
فى مجال اللغة العربية ، والتاريخ والجغرافيا والأعلام والآثار .
ولقد عشت أكثر من سبع سنوات أوصل هذا البحث ،
وأهبط عنه ، وأعود اليه من جديد ، محاولا أن لا يفوتنى قطاع
من عمل الرجل ، أو تغيب عنى لمحة من لمحات حياته وتراثه ، ومع
ذلك فقد ضاق البحث عن مئات التفاصيل والشرائح والأسانيد ،
وان كنا قد حاولنا أن نجتمع كل الخطوط والخيوط فى يد القارىء
عسى أن يتجه باحث أو أكثر الى دراسة آثار الرجل دراسة
موسوعية شاملة ، واستخراج آرائه وتحقيقاته التى أعتمد أنها
مازالت تبض بالحياة ، وهى فى مجموعها تخدم سعى امتنا

العربية اليوم الى العمل من أجل تأكيد دورنا في الحضارة ، وحقنا في بناء نهضتنا على أساس من قيمنا ، وابرار هذه المعاني ، وكشفها ، لنرد بها عادية خصوم الأمة العربية ودعاة التغريب ، والمخاصمين لأمجادنا وتراثنا .

وليس ثمة عيب يمكن أن يؤخذ على « أحمد زكي باشا » الا ايثاره نشر آرائه وابحاثه في الصحف اليومية دون جمعها ، ولعله كان حريصا على ذلك ليحقق لها الدوى الكبير والصدى الواسع والوصول السريع الى كل الأيدي في العالم العربي ، وفي الامكان الآن أن يطبع أكثر من عشر مجلدات من آثاره موزعة على أبواب التحقيق العلمى المختلفة في مجالات الادب واللغة والتاريخ والآثار .

* * *

وقد حدد أحمد زكى هدفه من عمله وحياته في عبارته المعروفة :

« ولى كل يوم موقف ومقالة »

وأعتقد ان تحقیقات أحمد زكى من العمق والأهمية بحيث تلفت نظر الباحثين المتخصصين ، ولاسيما معجمه اللغوى العربى الكبير الذى أخذ يعمل فيه سنواته الأخيرة ، وتوفى دون أن يتمه ، ومؤلفات أخرى أتمها منها كتابه عن (مدائن الاندلس) و (مجالس المعدادات والندابات) ورحلته الى اليمن ومحاضراته المختلفة وخاصة محاضراته بالفرنسية التى ألقاها فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية .

وقد تردد اسم (أحمد زكى) كثيرا علما على كثير من الناس المشهورين والمغمورين حتى أصبح من الضروري أن يحدد اسم « أحمد زكى » صاحب هذه الدراسة بعبارتين (باشا) و (شيخ العروبة) . فهناك (أحمد زكى) المترجم الأول من مدرسة رفاعة الطهطاوى ، وأحمد زكى (العدوى) المحقق اللغوى بدار الكتب ، وأحمد زكى (الدكتور) رئيس تحرير مجلة العربى والدكتور أحمد زكى (تركى) وزير البحث العلمى .



وحياة أحمد زكى مرتبطة بآثاره الأدبية الى أبعد مدى ، فإن يكن عمل موقعا فى الحكومة فإن ذلك أعانه على العمل الأدبى ، وحقق له جاها أكبر فى الرحلة والحصول على ذخائر التراث وفرض الكلمات العربية واقصاء الدخيلة وتحرير الدواوين الحكومية من التعابير التركية والأجنبية على السواء ، وفى حياة أحمد زكى وأدبه جوانب القوة ، وجوانب الضعف ، ولكنه كان على كل حال باحثا علامة ، مشرق النفس ، جريئا مؤمنا برسالة ، عاش لها حياته كلها ، وهى إبراز مجد الأمة العربية ، والدفاع عنها وتحقيق تاريخها ، وفضح كل خطأ أو هوى يهدف الى الغض من شأنها أو محاولة لتزييف حقائق لغتها أو آثارها أو تاريخها .

هذه الحياة تهدمها اليوم ، مؤدين بعض الدين لهذا الرجل العظيم بعد أن ظلت مطوية سنوات وسنوات ، معتذرين لعملنا هذا عن عقوق من اتصلوا به ، وجعلوا قدره ، ولم يقوموا على آثاره باحيائها أو الكشف عنها .

ولعلنا نستطيع بعون الله أن نقدم من بعد صورا أخرى
لهؤلاء الأعلام ، الأبرار ، الذين خدموا أمتهم وتاريخها ولغتها ،
وألقى الزمن على حياتهم ستارا من الإهمال والنسيان .
وبالله التوفيق ،

أنور الجندى

الهرم في ٢١ ديسمبر ١٩٦٣ (القاهرة)

ملاحم جيل ومطالع حياة

عاش أحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ العروبة حياة عريضة
تبدت آثارها فى ذلك الانتاج الوافر من الأبحاث التى نشر أقلها
فى كتيبات صغيرة فى مطالع حياته ، ونشر أغلبها فى الصحف ، وظل
فى بطونها حتى اليوم فى خلال أكثر من خمسين عاما (١٨٩٢ —
١٩٣٤) ، لا سبيل الى التعرف عليها الا بالبحث . حيث لم يترك
أى فهارس عامة لهذه المقالات التى نشر أكثرها فى المؤيد والمقطم
والأهرام والبلاغ .

ولقد كان فى الامكان أن يكون زكى باشا واحدا من أولئك
الموظفين الكبار فى الدولة الذين عملوا فى القصر أو فى مجلس
النظار من أمثال عثمان مرتضى (باشا) وحسين عاصم (باشا)

سنوات طويلة فى ظل هذا العمل الحكومى
رجما فى مجلس النظار وسكرتيرا (ثانيا)
فسكرتيرا عاما سنة ١٩١١ .

ولكن أحمد زكى باشا كان منذ مطالع حياته (مفكرا) مصريا
عربيا قبل أن يكون موظفا حكوميا . يبدو هذا واضحا وبصورة
صريحة لأول مرة فى اقتدابه لتمثيل الحكومة المصرية فى مؤتمر
المستشرقين ١٨٩٢ .

لقد بدأ زكى باشا حياته مترجما ، وكان هذا العمل من الخطورة بمكان ، فقد كانت مدرسة رفاة الطهطاوى بعيدة الأثر في الثقافة المصرية العربية الحديثة بما نقلت الى اللغة العربية من مؤلفات بلغت في عهد رفاة نفسه ألفى مؤلف ...

وقد سار زكى باشا شوطا في مجال الترجمة ، وكان هذا هو عمله الأساسى في مجلس النظار أول الأمر ، ثم ظل جانبا من عمله فيما بعد ، والى نهاية مدة عمله .

ولكن زكى باشا لم يقف عند هذا الحد — بل تخطاه الى العمل في مجال احياء التراث العربى وبعثه والتنقيب عنه ، فما الذى لفت نظره الى هذا العمل ؟

الواقع أن زكى باشا كان منذ مطالع شبابه كاتباً وخطيباً ، وأنه في أيام الطلب كان يترجم بعض الآثار ، وينشر في الصحف آراءه وملاحظاته ، كانت مكتبة شقيقه (محمد رشاد) القاضى ورئيس المحكمة الأهلية فيما بعد هى التى فتحت أمامه آفاق القراءة والبحث ، وقد أحس أنه كاتب بطبيعته ، فضلا عن تفوقه في الترجمة تفوقا كان مضرب الأمثال ، فقد كان يقرأ الصحيفة من أى كتاب فرنسى ويترجمها أولا بأول باللغة العربية على نحو يخلب الألباب .

هذا فضلا أنه بعد أن نال شهادة الحقوق عام ١٨٨٧ عمل محرراً في الوقائع المصرية ، هذه البيئة التى عرفت من قبل رفاة الطهطاوى وفارس الشدياق ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سليمان .

كما اتصل زكى « باشا » بالمجمع العلمى المصرى ، وعرف
مسيو ماسيرو وزملاءه من رجال الآثار ، وفى جو هذا المجمع
اتصل زكى « باشا » بعدد من المستشرقين وطالع أبحاثهم وشهد
اهتمامهم بالبحث عن التراث العربى وطبعه فى مطابعهم .
كل هذا كونه عنده (نقطة البدء) التى حددت مستقبل حياته
كله وهى احياء التراث العربى ، ودراسته ، وبعثه ، وتحقيقه ،
وكشف ذخائره ، والدفاع عنه ، والرد على كل من يحاول تحريفه
أو تزويره .

وكان زكى باشا المغربى الأصل ، الفلسطينى المنبت ،
المصرى الأرومة ، مستعدا استعدادا نفسيا كاملا للدفاع عن
مقومات الفكر العربى والأمة العربية .

ولقد كان هذا مجالا جديدا لا يعرف أن أحدا ارتاده قبله ،
ولم تظهر آثاره الا بعد وقت طويل ، ربما سنة ١٩١١ فى مشروع
احياء الآداب العربية وربما بعد عام ١٩٢١ فى رحلاته الى سوريا
والى اليمن والى القدس من أجل الدفاع عن القضية العربية .
وهذا هو الجانب الثانى فى حياة هذا المفكر ، الذى لم يقتصر
همه على العمل فى ميدان الفكر وحده ، ولكنه تطلع الى العمل
السياسى العربى أيضا ، وخطا فيه خطوات واسعة ، كان أبرز
مظاهرها استقباله للعشرات من أعلام العرب والمسلمين ومحادثتهم
ومراسلتهم ، وعقد الندوات لهم ، وتكريمهم سواء على طريقة
السماط العربى فى بيته بجيزة القسطاط على ضفاف النيل أو فى
جروبي وغيره مما ستتحدث عنه فيما بعد .

ويمكن القول بأن « أحمد زكى » كان منذ مطالع شبابه يتطلع الى عمل كبير له دوى ، فقد كان غاية في الذكاء والحماسة والتوقد ، كشفته أمامه هذه العوامل المختلفة ، ودفعته اليه حماسه وتطلعه ، وقد شاعت الظروف أن تضعه في بيئة لها طابعها الذى عرف بها ، وهى بيئة الأمير : عباس حلمى الثانى التى ضمت أحمد شوقى وأحمد شفيق وأحمد حافظ عوض ، والشيخ على يوسف ، وقد امتد حكم ذلك الخديوى من عام ١٨٩٢ الى عام ١٩١٤ .

لاشك كانت هذه البيئة على خلاف مع بيئات أخرى عاصرتها، منها بيئة الشيخ محمد عبده وتلاميذه الذين كانوا على خصومة مع الخديوى عباس واتصال باللورد كرومر .
وبيئة حزب الأمة وعلى رأسها لطفى السيد التى كانت تساير اتجاه اللورد كرومر .

أما بيئة الحزب الوطنى وعلى رأسها مصطفى كامل ومحمد فريد فقد كان الخديوى متضامنا معها منذ تولى الحكم عام ١٨٨٢ الى استقالة كرومر ١٩٠٧ ، وحتى جاء المندوب البريطانى (الدون غورست) بما أطلق عليه سياسة الوفاق ، هنالك اختلف الخديوى مع الحركة الوطنية ، وأطلق عليها رجاله .
وقد شارك فى ذلك أحمد زكى وشوقى وحافظ عوض وعلى يوسف الذى تحول بالمؤيد من موالاته الحركة الوطنية الى موالاته الخديوى ومسايرة الانجليز .

وقد عمل أحمد زكى عام ١٩٠٦ « سر تشريفاتى الخديوى »

وفى عام ١٩٠٧ عين سكرتيرا لمجلس النظار ، وظل حتى عين سنة ١٩١١ سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء .
وشهد عباس حلمى (١٨٩٢ — ١٩١٤) والسلطان حسين (١٩١٤ — ١٩١٧) وفؤاد (١٩١٧) حتى أحيل على المعاش عام ١٩٢١ .

كما عمل مع النظار (رؤساء الوزراء) بطرس غالى ١٩٠٧ — محمد سعيد — حسين رشدى ١٩١٤ — ١٩١٧ يوسف وهبه ١٩١٩ توفيق نسيم (١٩٢٠) عدلى يكن (١٩٢١) .
وهكذا بَعْدَ زكى باشا بطبيعة عمله وتقلباته ، عن مجال الحركة الوطنية وعُدَّ من رجال الأمير ، ولكنه كان يحكم اتجاهاته الفكرية وكتاباته ومراجعاته معدودا فى طليعة بيئة المفكرين فى هذه الفترة .

هذه البيئة التى كانت تضم : أمين فكرى ومصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين وحفنى ناصف وفتحى زغلول ولطفى السيد واسماعيل صبرى وأحمد شوقى وعبد السلام ذهنى وعبد العزيز جاویش وعمر لطفى وأحمد حافظ عوض ومحمد عبده ويعقوب صروف وأحمد كمال وداود بركات وفارس نمر وجورجى زيدان وعلى يوسف ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وابراهيم المويلحي ومحمد المويلحي وتوفيق البكرى وابراهيم اليازجى وشكيب أرسلان ومحمد كرد على وعبد القادر المغربى وأحمد تيمور وأحمد شفيق وأمين سامى ومحمد لبيب البتانونى .

ولعل اتجاه أحمد زكى قد تحدد فعلا ، ووجد نقطة البدء الحقيقية عندما اختاره الخديوى عباس لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين فى لندن (أغسطس ١٨٩٢) فقد عمقت هذه الرحلة جوانب شخصيته الفكرية ، وأعطتها دوافع الانطلاق .

أولا : زيارته لاوروبا وقضاؤه ستة أشهر فى أرجائها .
ثانيا : لقاءه للمستشرقين ، وأحاديثه معهم ، واستماعه اليهم .
ثالثا : زيارته للمكتبات ، والبحث عن التراث العربى فى مكتبات أوروبا المختلفة .

رابعا : زيارته لاسبانيا ، ومراجعاته المتعددة للأندلس ، بلادها وأسمائها وتاريخها ، وإطلاقه اسم « الفردوس الاسلامى المفقود » عليها .

وقد ظلت هذه الأعمال ممتدة طوال حياته ، فقد توالى رحلاته لآوروبا وتوالى مقابلاته للمستشرقين والباحثين وتوالى حضوره لمؤتمرات المستشرقين . وتوالى البحث عن المخطوطات العربية فى مكتبات الشرق والغرب ، وظلت الأندلس أنشودة حياته .

ومنذ هذه السفرة التى نشر فصولها فى الأهرام توثق اتصاله بهذه الصحيفة المعمرة ، فنشر فيها كتاباته حتى آخر سنوات حياته (١٨٩٢ — ١٩٣٤) .

ومن آيات نبوغ أحمد زكى أن أتيح له أن يمثل مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى لندن عام ١٨٩٢ — بعد الاحتلال البريطانى بعشر سنوات — ولم تكن سنه تتجاوز الخامسة والعشرين .

ولعل زيارته للأندلس — ذلك الفردوس الاسلامى المفقود
هى التى فتحت أمامه آفاق الحماسة للتراث العربى ، وأوقدت
فى نفسه تلك الشعلة الروحية من أجل الدفاع عن أمجاد العرب
والاسلام ، فظل يوالى عمله فى ميادين ثلاثة :

١ — احياء التراث العربى بالبحث عن المؤلفات والمخطوطات
ونقلها بالفوتوغرافيا .

٢ — الآثار العربية والبحث عن القبور والمواقع والدعوة
لتكريم أصحابها .

٣ — تصحيح أسماء الأعلام والبلاد والوقائع والأحداث
فى مجال اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا .

وقد عاش زكى باشا مدرها يدافع عن تراث العرب وتاريخهم
وأعلامهم ، يقظا لكل ما ينشر عنهم ، متحررا له ، دافعا أخطاء
المستشرقين وأوهام الباحثين ، منقبا عن صحيح الآراء .

ويمكن القول بأن حياة زكى باشا قد مرت بمراحل ثلاث :

١ — المرحلة الأولى وهى مرحلة جمع التراث العربى من
مكتبات الآستانه وأوروبا والمشرق والمغرب ونقله
بالفوتوغرافيا ومراجعته والتعليق عليه وطبعه ونشره .

٢ — مراجعة هذا التراث ودراسته واستيعابه ، وتكوين
خزائنه الزكية والتعليق على ما بها من مؤلفات ،
واعداد أضاير وجذاذات فى مختلف فنون الادب
والتاريخ والجغرافيا . والاتصال بالباحثين
ومراجعتهم .

٣ — وهى المرحلة الأخيرة من حياته ، والتي تبدأ بعد إحالته على المعاش سنة ١٩٢١ حتى وفاته سنة ١٩٣٤ ، وهى أخصب فترات حياته ، حيث نشر عشرات المقالات والأبحاث ، وتوسع فى صلاته بزعماء العالم العربى وتوسط فى الخلاف بين اليمن والسعودية واتتدب لتحقيق الخلاف بين العرب واليهود فى شأن حائط المبكى وقضية البراق .

* * *

- وأبرز معالم حياة أحمد زكى تتمثل فى :
- عمله من أجل احياء الآداب العربية وتكوين « الخزانة الزكية » .
 - رحلاته .
 - تحقيقاته ومراجعاته فى الأدب والتاريخ والجغرافيا .
 - معاركه ومساجلاته .
 - عمله من أجل الكشف عن أمجاد العرب والاسلام .
 - اهتمامه البارز بالأندلس .



ولد أحمد زكى عام ١٨٦٧ م ، فماذا يمثل هذا العام في « تاريخ مصر » .

لقد تولى اسماعيل الحكم ١٨٦٣ م وأمضى فيه ستة عشر عاما حتى عزل ١٨٧٩ وهذه سنوات شباب أحمد زكى ، الذى أحرز شهادة الحقوق (من مدرسة الادارة) عام ١٨٨٧ أى فى خلال حكم توفيق . وعندما وقع الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ، كان عمره خمسة عشر عاما . وهكذا عاش أحمد زكى حياته كلها فى ظل الاستعمار البريطانى لمصر ، وواجه فى مطالع حياته هذا النفوذ . وفى عام ١٨٩٢ انتعشت الآمال بدعوة مصطفى كامل الى الوطنية .

وقد صدر المؤيد عام ١٨٨٩ ، صحيفة مصرية اسلامية الطابع ، لتواجه المقطم الذى صدر قبلها بعام (١٨٨٨) .

ومن دفعة زكى (باشا) من مدرسة الحقوق عمر لطفى ومحمد فريد .

وقد شق كل من الثلاثة طريقه على نحو من الأنحاء . فعمير

كحل اقتصادى لمشاكل

المصريين ، اما محمد فريد فقد بدأ حياته مؤرخا وكاتباً معنيا بالقضايا السياسية الكبرى ، وأهمها مشكلة الاستعمار فى الشرق والقارة الأفريقية ، وكتب عشرات المقالات فى الصحف وفى مجلة (الموسوعات) .

أما زكى (باشا) فقد اتجه ، الى الترجمة وتنبه الى احياء التراث العربى . وأخذ الخط الذى اختطته المدرسة التى اتصلت ببيئات المستشرقين والباحثين الأجانب واكتفت بالعمل الفكرى كوسيلة من وسائل تنوير الأذهان ، ولعل أبرز من مضى فى هذا الاتجاه أحمد تيمور باشا الذى عكف على العمل من أجل جمع واحياء ومراجعة التراث العربى والشيخ طاهر الجزائرى (دمشق) والأب لويس شيخو اليسوعى (بيروت) ثم محمد كرد على (دمشق) والأب أنستاس الكرملى (بغداد) . فقد عملت هذه المدرسة فى العالم العربى على احياء التراث العربى الاسلامى .

وتيمور باشا المولود ١٨٧١ وزكى باشا المولود ١٨٦٧ كانا فى مصر فرسى رهان فى جمع نواذر المخطوطات ، وكنوز المؤلفات العربية القديمة . وقد اتصلا بمكتبات الآستانة والمغرب والحجاز واليمن . واستحضرا هذه الآثار بالتصوير الفوتغرافى من باريس ولندن وروما .

غير أن تيمور باشا كان ثريا يملك أربعة آلاف فدان من أجود الأطنان ، مما كان يعينه على دفع أى مبلغ ، بينما كان زكى باشا أقل ثروة ، ولكنه أبعد مدى وجراًة فى السفر والترحال والبحث، واسع الحيلة فى الحصول على الكتب والمخطوطات وقد كان تيمور باشا عاكفا على خزائنه يعمل فى أناة وصمت ، بينما كان زكى باشا يوالى صيحاته على صفحات الصحف كلما عثر على كشف جديد ، أو رأى مثير . مع انشغال بالأعمال السياسية ،

وحب للظهور والتبريز ، يقابله تواضع وازورار على الناس عند
تيمور باشا .

وقد كان من نتيجة هذا أن ترك تيمور باشا عشرات من
المؤلفات المخطوطة ، ما تزال تطبع حتى الآن ، بينما لم يترك
زكى باشا الا مؤلفات قليلة ، وترك كل تراثه وآثاره مدفونة في
بطون الصحف والمجلات خلال أكثر من خمسين عاما .

ولا شك أن زكى باشا رائد في مجال البعث والاحياء العربى
أتاحت له اتصالاته بدوائر الباحثين والمستشرقين في المجمع العلمى
المصرى والجمعية الجغرافية الى اقتناص مكانة بارزة في هذا
المجال والسير فيه ، على نحو استطاع معه خلال عام ١٩١١ أن
يحقق نجاحا كبيرا ، حينما أذعنت (وزارة المعارف) له وأخذت
برأيه وقررت اعتمادا لاحياء الآداب العربية ، وتولى زكى (باشا)
هذا العمل وكان من قبل قد ساح في الآستانة وأوروبا باحثا عن
المخطوطات ، ناقلا اياها بالفوتوغرافية مما حقق أغناء الأدب العربى
بآثاره الدفينة ونفع الأمة بها .

ولقد تأثر زكى باشا بحركات ثلاث سبقتة :

الأول - النهضة التى حمل لواءها رفاعة رافع الطهطاوى
في مجال الترجمة ونقل الآثار الأدبية والفكرية
الفرنسية .

ثانيا - النهضة التى قادها السيد جمال الدين الأفغانى
في تحرير الفكر والايمان بالشرق . وحقه في

الحرية والكرامة ، واستثارة أمجادهم وتراثهم
وتاريخهم المرتبط بالعروبة والاسلام .

ثالثا — النهضة التي تصدر لها محمد عبده في تحرير
الأسلوب العربى من التقليد وتوجيه الكتابة الى
المضمون والهدف بدون مقدمات ولا سجع
ولا زخارف أو محسنات لفظية .

وقد بلغت أصداء هذه النهضة زكى (باشا) في مطالع شبابه
فقد نقى جمال الدين من مصر عام ١٨٧٩ ، وظلت آثاره تدوى
في كل مكان ، وكانت الثورة العرابية من آثار صيخته . وقد عاش
جمال الدين حتى توفي عام ١٨٩٣ ، ولم تنقطع خلال هذه الفترة
أخباره عن مصر ، وهو ينتقل من مصر الى فرنسا الى روسيا الى
بريطانيا حتى استقر به المقام في استانبول .

وكانت آثاره الفكرية واضحة أشد الوضوح في الصحافة
المصرية ، وفي أفكار تلاميذه التي تبلورت في على يوسف وسعد
زغلول ومحمد عبده وإبراهيم اللقاني ورشيد رضا وعبد العزيز
جاويز وحفنى ناصف وإسماعيل صبرى ورفيق العظم وشكيب
أرسلان وأحمد تيمور وعبد القادر المغربى ، هذه الأفكار عاشت
في أعماق ، أحمد زكى على نحو ما ، وتبلورت في هذا العمل الذى
توفر عليه ، والذى تكشف من بعد عن اتجاه واضح ، ورسالة
صريحة في الدفاع عن مقدرات الأمة العربية ، وتراثها وثروتها
الأدبية والتاريخية .

ويمكن القول بأن النهضة العربية التي أوقد جذوتها
جمال الدين الأفغانى قد كشفت عن ثلاثة ميادين للعمل :

١ — العمل لتحرير الوطن .

٢ — العمل لتحرير الدين .

٣ — العمل لبعث التراث العربى والتحقيق العلمى فى مجال

اللغة العربية والتاريخ ، وقد كان زكى باشا من هذا الفريق .

وقائع حياته

- ١٨٦٧ (١) ولد بمدينة الاسكندرية .
- ١٨٨٧ نال أجازة الحقوق .
- ١٨٨٧ عين مترجما بمحافضة السويس .
- ١٨٨٩ عين مترجما لمجلس النظار .
- ١٨٩٠ اختير عضوا في المجمع العلمي المصري (الجمعية الجغرافية فيما بعد) .
- ١٨٩٢ حضر مؤتمر المستشرقين في (لوندرة) نائبا عن الحكومة المصرية .
- ١٨٩٢ زار الأندلس وطاف أوروبا .
- ١٨٩٤ حضر مؤتمر المستشرقين في جنيف .
- ١٨٩٧ عمل سكرتيرا ثانيا لمجلس النظار .
- ١٩٠٠ حضر معرض باريس وألف عنه كتابه «الدنيا في باريس» .

(١) ذكر عيسى اسكندر المعلوف (مجلة المجمع العلمي العربي م ١٣ - ص ٣١٨) أنه ولد عام ١٨٦٦ ، وذكر يوسف أسعد دافر في كتابه (مصادر الدراسة الادبية) انه ولد عام ١٨٦٠ والذي عليه اجماع المؤرخين والكتاب انه ولد عام ١٨٦٧ م الموافق ١٢٨٤ هـ

- ١٩٠٢ حضر مؤتمر المستشرقين في هامبورج بألمانيا واتفق مع
المسابك لاختصار صندوق الحروف العربى .
- ١٩٠٤ رحلته الى باريس ، ومناقشاته مع المستشرقين (اقرأ
تفاصيلها فى فصل رحلاته) .
- ١٩٠٦ عمل تشرىفاتيا للجناب الخديو (٢) .
- ١٩٠٨ عين سكرتيرا عاما للجامعة المصرية (القديمة) ومدرسا
لتاريخ الحضارة الاسلامية .
- ١٩٠٨ سافر الى الآستانة للبحث عن المخطوطات .
- ١٩٠٩ اختير عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق .
- ١٩١١ عمل سكرتيرا عاما لمجلس النظر .
- ١٩١١ نقل مكتبته الى دار الكتب (الخزانه الزكية) .
- ١٩١١ تولى مشروع احياء الآداب العربية .
- ١٩١٢ حضر مؤتمر المستشرقين فى أثينا رئيسا لوفد مصر .
- ١٩١٦ أنعم عليه بالباشوية .
- ١٩٢١ أحيل الى المعاش .
- ١٩٢٢ نقل مكتبته الى قبة الغورى .
- ١٩٢٤ زار الشام وحلب ودمشق .

(١) لا يذكر كثير من الباحثين هذا العمل فى وقائع حياته . وقد
ذكره شفيق باشا فى موسوعته (مذكراتى) ج ١

- ١٩٢٤ دعا الى تأليف الرابطة الشرقية .
- ١٩٢٦ سافر الى اليمن والحجاز مندوبا عن الرابطة الشرقية
للسفارة بين ملكيها .
- ١٩٣٠ زار بيت المقدس .
- ١٩٣٣ زار فلسطين ومعه مسودة كتاب مسالك الأبصار .
- ١٩٣٤ توفي .

فى بن ابراهيم بن عبد الله
، ودفعته الى هذا الطريق

زلوا ثغر يافا أولا ، ثم نرح
للتجارة . ووالدته من بيت
بدي البواب ، من ضواحي

شقيقه « محمود رشاد »
ة مصر الابتدائية الأهلية .
ية الأب ، مصرى من ناحية
فلسطينى الأصل .

القرية بالقاهرة ، ثم فى
المسماة بالمدرسة الخديوية
الادارة — التى سميت من

بعد مدرسة الحقوق — وتكشف هذه الفترة من حياته عن عوامل
كثيرة فى شخصيته ، كانت بعيدة الأثر فى حياته . فقد ظل وفيا
لشقيقه « محمود رشاد » لا يذكره الا بالاجلال والاكبار ويعبر
عن ذلك بقوله « والذى الشقيق » .

وقد كان محمود رشاد (المولود ١٨٥٤) والذي يكبر زكى باشا بثلاثة عشر عاما ، باحثا حقوقيا أديبا ، له رحلات وأبحاث عمل أول أمره ضابطا فى الجيش ، ثم مفتشا فى وزارة المعارف وقد اشترك فى مؤتمر المستشرقين الدولى بـقينا ، وكان من رجال المحاكم الأهلية ، ترقى الى أن أصبح رئيسا لمحكمة مصر .

وكانت له مكتبة ضخمة ، لعل أحمد زكى قد نظر فيها أول شبابه ، فقد نشأ فى هذا الجو الفكرى فتطلع اليه واتصل به ، ومضى فيه شوطا أطول من شوط شقيقه الوالد .

ولمحمود رشاد كتب متعددة منها بحث فى دار لقمان . وكنوز الذهب فى التربية والأدب ، ورحلة الى روسيا . وله مجموعة مقالات فى الأهرام تحت عنوان « المرسليات » كتبها وهو فى مرسيليا .

وكان فى حياته العملية مثالا للنزاهة ، حتى أنه آثر الاستقالة فى ظرف أحس أن هناك ضغطا على ضمير القاضى ، وذلك عندما قدمت الحكومة الكاتب الألعى الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير العلم الى القضاء ، وكانت المعية الخديوية ودار الوكالة البريطانية تنتظران الحكم عليه وسجنه ، ولكن محمود رشاد أصدر حكمه ببراءته ، بناء على حيثيات وأسباب أوردها فى قرار الحكم ، دلت على صلابته فى الحق وشجاعته .

ويبدو أنه أحس عدم الرضا عن أثر الاستقالة من منصبه ، غير أن الجهات المسئولة خشيت أن تكشف هذه الاستقالة موقفها

فرجاء سعد زغلول وزير الحقانية — اذ ذاك — أن يرجع الى منصبه فألح في الرفض .

وأرادت الحكومة استرضاءه بالانعام عليه بالباشوية ، فلما علم بذلك كتب يعتذر عن قبولها ، بل تجاوز الاعتذار الى التهديد ، وقال انه اذا أصرت الحكومة على الانعام عليه فانه يغادر البلاد فوراً .

وكتب الى داود بركات رئيس تحرير الأهرام في خطاب خاص يقول كيف أقيد نفسى بهذه الرتبة ، وأتنازل عن حريتى ، فلا أتمكن من ركوب الترام في الهواء الطلق بين الناس وأضطر الى ركوب الدرجة الأولى التى تضيق الصدر .

ثم ان الباشوية ستحرمنى أكل السمك اللطيف والطعمية اللذيذة بـدكان الحاج حسين بشارع كلوت بك ...

وعكف محمود رشاد بعد اعتزاله القضاء على الرحلة ، فساح فى الشرق والغرب وكان رحلته الى روسيا والقوقاز دليلاً على الجرأة وقوة العزيمة ، وكان ينشر خواطره فى جريدة المؤيد .

ثم ساح بعد الحرب العالمية الأولى فى أوروبا ، وأرسل للأهرام فصولاً وخواطر وكان الى ذلك راوية لأخبار العرب وأشعارهم ، عالماً بتاريخهم ، سميراً لآخوانه ، فكه الحديث .

وقد كان فضله على زكى باشا بالغا ، فقد كمله ورباه وعلمه ، وكان زكى باشا وهو أرفع مناصباً من شقيقه ، يجلس منه مجلس الابن من الوالد ، والتلميذ من الأستاذ ، باراً به .

ولا شك أن كل الخطوط العامة لاتجاه أحمد زكى الفكرى

تبدو واضحة في محمود رشاد ، فهو بلا شك امتداد له على نحو أعمق وأوسع مجالا ، في ميادين عدة :

١ — مطالعات أخبار العرب وتاريخهم .

٢ — الرحلة والسفر .

٣ — الفكاهة والسخرية .

٤ — الاعتزاز بالنفس ، والجرأة في ابداء الرأي .

وقد صور أحمد زكي من خلال سطور من أبحاثه وكتابه « صور العصر » ولون تلك الحياة التي كان يحيها في هذه الفترة يقول : (١) دخلت الخديوية على أثر مجيئي من بنى سويف وكانت هى المدرسة التجهيزية الوحيدة فى القطر ، أما ذكرياتى عن نفسى فتتلخص فى تفوقى فى اللغة العربية ومهارتى فى حل أعرابها . وانى لأذكر يوم طلب الى اعراب هذا البيت :

ألف الكتابة وهى بعض حروفها

لما استقام على الجميع تقدما

فأعربته ولكنى مع الأسف لم أعرف المعنى » وتحدث عما أسماه « غلبة الروح العابثة للشباب النزاعة الى اللهو والمجون ، على كل عواطفى » فقال : « كان من أصدقائى فى المدرسة الحاج على لبيب ، والدكتور بيومى فتحى ، وكنا نحن الثلاثة ننساق تحت شجرة « جميزة » ، وكانت فوق ساقية بفناء المدرسة ، وكان يحلو للدكتور بيومى النوم عليها فكنت أنتظره حتى ينام ، ثم

(١) فى حديث مع كمال حموده ١٨/٨/١٩٣٤ - الأهرام .

أدفعه فيقع على الأرض ، وقد ضبطني الضابط محمود أفندي
وهبى وأودعت الزنانة .

... أما الليل فكنا نقضيه في سماع مطربي ذلك العصر :
يوسف المنيلاوى وألظ ، ومحمد عثمان ، والشنتورى . وكنا
نعرف جميع أماكنهم بالذهاب الى تمثال ابراهيم باشا ، حيث
يجلس هناك بائعو اللب والقول ، وهم خير من ينبئونك بأماكن
هؤلاء ، عندما تشتري بالقرش ، وكنا نستمر في الجلوس معجبين
بهذا المطرب ، الى أن يقول لهم (الفجر لاح قوموا يا تجار النوم).
وهنا تعجب كيف يمكننا دخول المدرسة في هذه الآونة ، فقد
كنا عند خروجنا من المدرسة قد اتفقنا مع بعض الاخوان الذين
سيكرونا في العودة الى المدرسة حتى يكونوا على استعداد
لمساعدتنا عند مجيئنا ، وعند الدخول تدلى الينا الملاءات المربوطة
من أطرافها بالجبال، ويجلس فيها الشخص ثم يشد الاخوان الجبل
من أعلى فيطلع اليهم سالما وهكذا حتى يطلع الجميع ، وعندما
يحضر الضابط النوبتجي يرى الجميع في أماكنهم .

وقال زكى باشا ان (الزنانة أكلت منى رات) وأنه تمتع
بجميع العقوبات المدرسية : كالعيش الحاف ، والجلوس ديز ،
والزنانة .

وتكشف هذه « الاعترافات » عن ملامح شخصية أحمد زكى
التي عرفت فيما بعد بوضوح ، فهو يصف دائما نفسه بأنه «ماكر» .
وقد عرف عنه السخرية والتهكم ، والتطلع الى المرح
والفكاهة ، واحداث المقالب لأصدقائه .

وهذه صورة أخرى من مطالع حياته تكشف عن جانب آخر من شخصيته يقول : حكاية وقعت لى سنة ١٨٧٧ (فى سن العاشرة) كنت طفلا يرعانى أخى وسيدى وأستاذى (محمود رشاد بك) ، كنت أسكن معه فى شقة تطل على تحت الربع فاذا جن الليل كان أخى يجتمع مع أصدقائه ، سليم باخوس ، والشيخ محمد دياب ، والشيخ حفى ناصف ، وأحمد حجازى (الذى عرف بأحمد أفندى سمير) ويحيى ابراهيم .

أما أنا فكنت أبادر بعد تناول العشاء الى قهوة الشاعر (شاعر أبو زيد الهلالي سلامة) ، فأجلس فى مكان بعيد ، أطرب مسامعى بصوت الرباب ، وأشنف آذانى بوقائع الحروب . على أن هذه (العادية) (٢) قد سببت لى لطفة لا أزال أذكرها من يد أخى وولى نعمتى .

ويقول : انه كان يدعى للجلوس مع أصحاب شقيقه الأكرمين على السباط ، وكانوا يدللونه ويعللونه بالمكافأة ، اذا أجاب على أسئلتهم ، فكان (أحمد سمير) يسأل عن معنى بيت من الشعر ، وكان (حفى ناصف) يطالبه بأعراب آية من القرآن ، وكان (الشيخ دياب) يطالبه بحل مسألة هندسية ، أما (سليم باخوس) فكان يمتحنه بترجمة جملة قصيرة من الافرنسية الى العربية ، أما يحيى ابراهيم فقد اختص بالجغرافية « يقول « فاذا أحسنت

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ١٩٣٠/٥/٢١ .

(٢) هكذا كتبها وهى العادة .

الاجابة أتحنفى شقيقى بقرش صاغ عن كل سؤال وهو شيء كثيرا جدا حتى توفر لدى ١٩ قرشا .

وقد تعرض مرة للحديث عن أبى زيد الهلالي سلامة واثصر للزناتى خليفة ، يقول : فأخذت أعيد عليهم ما سمعته من الشاعر ، وأظهر تألمى لعدم انصافه (أى الزناتى) ، بينما كان أخى يتملح من الحديث ، وأنا مسترسل فى دفاعى مترنما بيت من الشعر طالما رددته شاعر القهوة :

دنيا دنية لا أرشد الله بغالها

بتأخذ وتعطى وما لها من يحاسب

واذا بشيء لم يكن فى الحساب ، وهى لطفة قوية خلت نفسى معها فى يوم الحشر والحساب .

وتعطى هذه الصورة علامات الذكاء وبوارقه فى مطالع حياة أحمد زكى واتصال ذلك بالتاريخ العربى عن طريق الأسطورة .
* كما كشف أحمد زكى عن جانب آخر من حياته فى مدرسة الادارة يقول :

انهم^(١) صححوا اسمها المغلوط سنة ١٨٨٦ فجعلوه مدرسة الحقوق . وفى هذه المدرسة التقى بالشاعر أحمد شوقى وعثمان مرتضى .

وكان أستاذهم الشيخ « محمد البسيونى البيبانى » من علماء

(١) ذكر هذه الألقاب على صدر رسالة الرق فى الإسلام التى ترجمها عام ١٨٩٢ ثم أضاف إليها عام ١٨٩٣ كلمة « واحد اعضاء الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر التاسع لعلماء المشرقيات بلوندره » .

الأزهر المعدودين ، يدرس لهم فنون البلاغة ، وكان متخصصا في نظم القصائد في مدح الخديو توفيق .

والشيخ البسيوني — كما يروى زكى باشا — هو الذى تحدث الى الخديو عن نبوغ شوقى ، ويتصل بهذا نبوغه — أى أحمد زكى — فى الترجمة ، تقدم لامتحان وظيفة مترجم لمحافظة الاسماعيلية عام ١٨٨٧ (فى سن العشرين) ، وعين بمرتب قدره ١٣ جنيتها ، ثم تقدم بعد ذلك بعامين (١٨٨٩) الى مسابقة أخرى لوظيفة مترجم فى مجلس النظار ، ففاز بالسبق ، وعين بمرتب قدره عشرون جنيتها .

وبدخوله مجلس النظار مترجما امتدت حياته الوظيفية الى أن أصبح سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء حتى عام ١٩٢١ . وقد جمع الى ذلك تدريس الترجمة فى المدرسة الخديوية ، وعضوية الجمعية الجغرافية ، وأستاذ اللغة العربية فى الارسالية العلمية الفرنسية .

وكان نبوغه فى الترجمة مضرب الأمثال ، فقد كانوا يدعونه الى الاحتفالات ، حيث يتحدث بعض المستشرقين أو العلماء الغربيين باللغة الفرنسية ويقوم أحمد زكى بالترجمة أولا بأول . ويشير (أحمد فهمى العمروسى) الى هذه الخلة من خلاله فيقول :

كنت طالبا فى مدرسة المعلمين التوفيقية ، وناظرها اذ ذاك مسيو (بينيه) وكان من دأبه أن يطالعنا من آن لآن بعظيم من عظماء الرجال من مختلف الأجناس ولشد ما كان مغتبطا اذ حضر

لنا ذات يوم ومعه شاب مصرى نشيط الحركة ، قوى البنية ، بهى
الطلعة تبدو على ملامحه أمارات النبوغ ، وملامح العبقرية ، فقال
ان هذا الشاب آية من آيات النبوغ فى الترجمة ، ويترجم أمامكم
قطعة فرنسية الى العربية على البديهة وفى الحق أنه كان آية اعجاب،
اذ فتح كتابا فرنسيا كان فى أيدينا ، وأخذ يتلو علينا بمجرد النظر
وعلى البديهة ما فيه بلسان عربى مبين .

وأشار العمروسى الى أنه فعل ذلك فى رثاء المستشرق
الفرنسى (كازانوف) بكنيسة القديس يوسف بالقاهرة من
بضع سنوات ، اذ نهض بعد أن أتم قومه مراثيهم بالفرنسية من
أوراق يتلونها فأبنه .

في ميدان الفكر

عاش أحمد زكي (باشا) في ميدان الحياة الفكرية والسياسية
نيما وأربعين عاما (١٨٩٢ — ١٩٣٤) واعتقد أن مجال حياته
الفكرية قد تحدد بحضوره مؤتمر المستشرقين (التاسع) في لندره
عام ١٨٩٢ في نفس العام الذي تولى فيه الخديو عباس زمام
السلطة ، وهو نفس العام الذي انتعشت فيه الحياة الفكرية
المصرية بظهور عدد كبير من الصحف والمجلات ، كما بدأت فيه
مطالع اليقظة السياسية بظهور مصطفى كامل ودعوته الوطنية
ذات الطابع الحماسي العاطفي الذي أيقظ النفوس ، ورد إليها
الأمل في كلمات متلاثة مشرقة وجدانية ..

وكان انتداب أحمد زكي لهذا العمل مسبقا بجولات له في
الميدان ، أعدته لهذه المهمة ، وكان شقيقه (محمود رشاد) قد
مثل مصر قبل ذلك بسنوات في أحد هذه المؤتمرات ، التي كان
يختار لها أهل العلم والفضل والقادرون على مواجهة المستشرقين
والباحثين الغربيين .

ومن هذه النقطة بدأت صلات زكي (باشا) الواسعة المتعددة
مع المستشرقين والباحثين الغربيين في مختلف أنحاء أوروبا ،
فأخذ يرسلهم ويباحثهم في المخطوطات العربية العديدة الموجودة
في مكتبات العالم المختلفة ، ومن هنا بدأ رحلته الطويلة للبحث

عن التراث العربى ، ونقله أو تصويره ، ومنها بدأ تكوينه للخزانة الزكية .

وبالجملة فإن هدفه الذى عاش من أجله طوال حياته الفكرية قد تحدد متمثلاً فى تحقیقات تاريخية وجغرافية ولغوية للتراث العربى كله ، وجمع ما أمكن الجمع لهذه المخطوطات ومراجعة دقيقة لها .

وقد أخلص زكى باشا الاخلاص كله لهذه الغاية وتجرد لها ، فكانت شغله الشاغل وعمله الأول والأخير ، ولم تحل أعباء العمل الرسمى الذى وكل اليه ، والذى اتسع فيما بعد دون هذه الغاية .

فقد كان يخرج من الديوان فى ساعات الظهر ميمماً شطر مكتبته الزكية فى بابها الخاص من دار الكتب ، فيمضى بقية يومه الى المساء ، يتناول طعام غداءه وقهوته ونرجلته ، وهو قارئ باحث مراجع ، يكتب تعليقاته على هوامش الكتب ، أو ينقل منها فى جذائحه التى تضخمت وتعددت ، والتى كانت عوناً فى الاجابة فى مثل رد الطرف على ما يوجه اليه من أسئلة ، أو يجده مكتوباً فى الصحف من أسئلة وآراء أو برقيات .

وهكذا يمضى يومه حتى يعود منهاكا الى داره فى المساء ، ليستقبل عشرات من الأصدقاء والأعلام القادمين من مختلف أنحاء العالمين العربى والاسلامى ، ليسمر معهم طويلاً ، وليمتد بعد ذلك سماطه التقليدى بالعشاء .

وفى خلال ذلك لا تتوقف المناقشات ولا الأبحاث

ولا المراجعات حول أدق المسائل في تاريخ العرب والاسلام ،
وأسماء الأعلام والبلدان ، ودقائق اللغة .

فاذا أقبل الصيف كان زكى (باشا) قد أعد عدته لرحلة الى
الآستانة أو أوروبا بحثا وراء المخطوطات ، ومعه « الفوتغرافية »
ينقل بها ما يشاء من هذه المؤلفات ويدفع غاليا في سبيل الحصول
عليها . وليس هو بالرجل الثرى ولكنها الهمة والايمان بالعمل
الذى تصدى له ، والذى ظل مكبا عليه ، حتى تحقق له عام ١٩١١
أن تدعى الدولة لرأيه ، وأن يجد في (أحمد حشمت باشا) وزير
المعارف اذ ذاك مجيبا لدعوته الى احياء الآداب العربية ، فيأخذ
المشروع طريقه ويحقق نجاحا كبيرا في طبع عدد كبير من المؤلفات
العربية .

ويواصل (زكى باشا) عمله من أجل الأحياء ، فهو متطلع
كل صباح الى الأهرام ، يقرأ الوفيات فما أن يعلم بوفاة واحد
من الكبار أو الثراء حتى يبحث عن آثاره وكتبه فيشتريها
بالاشتراك مع صاحب مكتبة الخانجي ، ويضم الصالح منها الى
مكتبته التى تضخمت حتى بلغت عام ١٩١٩ أكثر من ألفى مجلد
وزادت بعد ذلك حتى بلغت ١٨ ألفا .

وقد شغل هذا العمل (زكى باشا) طوال حياته ، وكان أعظم
ما فيه هو مراجعة هذه الآثار الأدبية وقراءتها ، واستيعابها ،
واستخراج النصوص المختلفة في فنونها وموضوعاتها في جذاذات
بلغت الألوف ، كان يعدها زكى باشا في أدراج خاصة ويضيف

اليها ، ويجعلها عدته في مراجعة الباحثين فيبزمهم بالجديد والمثير مما لا يصلون اليه ، لأنه لا يوجد الا في مكتبته هو .

وحقق لزكى باشا الاستمرار في هذا العمل والاتفاق عليه أمران هامان هما ميراثه لتركه شقيقه (محمود رشاد) التي بلغت فيما يقال أكثر من اثني عشر ألفا من الجنيهات وثروة زوجته التي كانت من أسرة عريقة ثرية هي أسرة « طوسون زعيم زادة » سر تجار الجيزة .

وقد عني (زكى باشا) بأن يكشف بين آن وآن جانباً من جوانب هذه الحقائق العلمية التي كان يصل اليها في مراجعاته ، في مقالات مثيرة أو محاضرات مستفيضة يكتبها في الأهرام أو المقطم أو المؤيد أو يلقياها في الجمعية الجغرافية أو أى ناد آخر .

وهو في كشفه عن هذه « الجوانب الغامضة » لا يتحرج من أن يقدمها بروح الازدهاء والتفاخر ، ومع قدر كبير من الفكاهة والتشويق والتبسط ، بل يمكن القول أن عمل زكى باشا في مجال الفكر والتحقيق العلمى كان مرتبطاً الى حد كبير بالكشف عن الجوانب الغامضة ، واثارة القضايا الضخمة ذات الدوى العاصف ، والتي ما أن تذااع حتى تحدث ضجة كبرى ، وتعليقات متعددة ، ومراجعات وانتقادات .

ثم لا يلبث زكى باشا بعد أن تهدأ الضجة أن يثير ضجة أخرى بكشف علمى آخر أو تحقيق آخر .

وهكذا كأنه موكل بأن يذكر الناس به ، ويحدث الضجة

التي تدور حول ما يستطيع أن يسبق به ويحرزه من علم ونصوص
توجد عنده وحده ولا توجد عند غيره .
من أجل هذا استطارت شهرته في كل مكان ودوى اسمه في
أنحاء العالم الاسلامي والعربي ، وراسله الكثير من الأعلام ،
سائلين عما غمض من تاريخ العرب والاسلام ، وكان يجيب هؤلاء
وهؤلاء مزدهيا قائلا :

« عني وعنني وحدي خذوا الخبر الصادق » ..
وقد كان زكي باشا حتى عام ١٩٢١ مقلا في هذه المراجعات
والمساجلات ، حيث كانت تشغله أعباء عمله الوظيفي ، ومطالعاته
المتصلة ومراجعاته ، واعداد جذائذاته ونصوصه ، وشراء الكتب
ونسجها ونقلها بالفوتوغرافيا ، فما أن أتيح له أن يتفرغ بالاحالة
على المعاش حتى سفر عن هذا الجانب ، وألقى بكل ثقله في
ميدان البحث العلمي فما تكاد تخلو صحيفة أو مجلة من بحث له
أو معه ، ومن قضية مثارة ، أو مسألة له فيها رأى ، وكانت صحيفة
الأهرام في هذه الفترة مجاله الأوسع ، وميدانه الطليق . ففى
صفحتها الأولى كانت تنشر مقالاته وتعليقاته التي كان يرسلها الى
الجريدة في أى وقت حتى منتصف الليل .

وعلى صفحات هذه الجريدة — التي كتب فيها منذ عام ١٨٩٢
فصول رحلته الى أوروبا والاندلس أول مرة — أثبت عشرات
التحقيقات ، ودقائق الأبحاث .

ومع ذلك فقد كتب (زكي باشا) في المقطم والبلاغ والمؤيد
من قبل فصولا متعددة وفي مجلات الهلال والمقتطف والمعرفة

والشورى والمجمع العلمى العربى (دمشق) والمجلة الجديدة
وغيرها عشرات الأبحاث .

وجملة القول أن زكى باشا عالج مئات الموضوعات وصحح
عشرات الأخطاء وراجع ألوف أسماء الأعلام والمدن ، ولكنه لم
يعالج موضوعا كاملا من موضوعات العلم أو بحثا شاملا من
أبحاث التاريخ أو اللغة حتى بلغ من أمره ابان معركة اللغة العربية
عام (١٩٠٧ وما بعدها) أنه لم يدل بدلوه أو يتحدث عن هذه
القضية على النحو الذى يدل على أنه مشغول بها فقد كانت
تستغرقه فى هذه السنوات أعمال احياء التراث ومراجعة ما أخرجه
منه وما أعاد طبعه ، وهو كثير . وقد تكلف جهدا ضخما شهد به
كل من عاصره أو قرأه من بعد .

ويمكن القول بأن « هم » زكى (باشا) كان فى الأغلب هو
الكشف عن نواذر الكتب ثم الكشف عن المدفون من الآراء
والأفكار والتواريخ والوقائع واعلانها فى ضجة كبرى ، وتأكيد
القول بأنه سبق العلماء الى ابرازها وتحقيقها ، وكان فى ابراز
هذه الحقائق جريئا لا يبالى اذا ما صلحت هذه الحقائق ما تواضع
الناس عليه من معتقدات أو عرف أو تقاليد أو موروثات .

العمل الفكرى

يمكن تقسيم عمل زكى (باشا) الأدبى الى مراحل متصلة
بمراحل حياته ذاتها . فقد بدأ عمله الفكرى بالترجمة و احياء التراث
والتأليف فيما يتصل بالتحقيق التاريخى واللغوى للأعلام والمدن
وغير ذلك . وكان أبرز أعماله فى هذه الفترة اختصار حروف
الطباعة وادخال نظام الترقيم العربى الى الكتابة العربية ، وقد
أُتيح له أن يحضر فى هذه الفترة عددا من مؤتمرات المستشرقين ،
كما توالى رحلاته فى سبيل البحث عن المخطوطات ونقلها
بالفوتوغرافيا ، واتصل بهذا عمله فى الجامعة المصرية القديمة ،
سكرتيرا عاما لها وتدريسه مادة الحضارة الاسلامية عاما واحدا ،
وقد كانت هذه هى فرصة تكوين الخزانة الزكية وتنميتها .
ثم توقفت حياة زكى باشا العملية بعد أن بلغ منصب السكرتير
العام لمجلس النظار فى عام ١٩٢١ ، فانتهت بهذا المرحلة الأولى
من هذه الحياة ، وهى متصلة متماسكة .

وهناك مرحلة أخرى بدأت فى خلال الفترة الأولى ، ولكنها
برزت على نحو واضح منذ عام ١٩٢١ حتى آخر حياته ، وهى
مرحلة التوسع فى التحقيقات التاريخية واللغوية وأسماء الأعلام ،
وتاريخ الأندلس وما يتصل به . وهى مرحلة عريضة خصبه بعيدة
المدى ، نشر فيها زكى (باشا) عشرات المقالات فى الأهرام والمقطم ،

وكثير من المجلات الشهرية والأسبوعية في مصر وفي العالم العربي .
واتسمت هذه المرحلة ببروز جانب المساجلة والمعارك ، فيما
يتعلق بالقضايا التي كان يعرض لها ، والزوايا التاريخية التي كان
يكشفها ، مما كان يثير ضجة وجدلا كبيرين .

وستحدث عن هذه الجوانب من أعماله الفكرية في أبواب

متعددة هي :

- ١ — الترجمة .
- ٢ — التأليف .
- ٣ — احياء التراث .
- ٤ — حروف الطباعة والترقيم .
- ٥ — اصلاح لغة الدواوين .
- ٦ — مؤتمرات المستشرقين .
- ٧ — في الجامعة .
- ٨ — الرحلة .
- ٩ — (الفردوس الاسلامى المفقود) .
- ١٠ — المكتبة الزكية .

ثم تفرد بابا كبيرا لعمله في المرحلة الأخيرة من حياته يتكون
من فصلين :

- ١ — التحقيقات التاريخية واللغوية .
- ٢ — مساجلاته ومعاركه .

١ - الترجمة

كانت الترجمة من أعمال أحمد زكى الأولى التى استهل بها حياته ، وقد قدم للغة العربية عددا من المؤلفات أهمها :

١ - أربعة عشر يوما سعيدا فى خلافة الأمير عبد الرحمن

الأندلسى (عن الفرنسية) مصر سنة ١٨٨٦ .

٢ - نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الاسلام (تأليف

محمود باشا الفلكى) ١٨٨٨ .

٣ - رسالة المعارف العمومية فى الديار المصرية ما يلزم

ادخاله من الاصلاحات الضرورية (تأليف محمد سعيد)

١٨٨٨ (مصر ١٣٠٥ هـ) .

٤ - الرق فى الاسلام (تأليف أحمد شفيق) ١٨٩٢ (بولاق

١٣٠٩ هـ) .

٥ - مصر الجغرافية (بولاق ١٣١٠ هـ) تأليف الدكتور

فريدريك نوبتولا سنة ١٨٩٣ .

٦ - تاريخ المشرق (تأليف ماسبيرو) ١٨٩٧ .

وهذه الأبحاث ترجمها فى الفترة ما بين (١٨٨٦ - ١٨٩٧)

ثم أتيح له بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات أن يعود الى الترجمة

حين دعى الى تقديم بعض انتاجه الى جريدة (الجريدة) عند

صدورها ، فاختار ترجمة قصتين على رفرف الجريدة ، الأولى

« السفر الى القمر » لجول فرن ، بدأت الجريدة نشرها فى العدد

الأول (٩ مارس سنة ١٩٠٧) .

والأخرى قصة « قبيل الاعداء » ليفكتور هيجو ، بدأ نشرها يوم ١٠ مارس ١٩٠٧ واستمرت القستان تنشران يوميا .
والمعروف أن أحمد زكى كان يجيد الفرنسية اجادة تامة وأنه بدأ عمله الرسمى مترجما وكانت له براعة فائقة شهد بها الكثيرون وهو يقرأ الصفحة المكتوبة بالفرنسية فينقلها على لسانه باللغة العربية الفصحى .

وقد لقيت ترجماته تقديرا وافرا من النقاد والباحثين ، وتناولتها الصحف والمجلات اذ ذاك ، وعنى بها المقتطف عناية كبرى ، وكان أبرز ما فى هذه الترجمات الدقة والتعليق وتصحيح الأسماء .

وقد أشار أحمد زكى (الذى تدرج خلال هذه الترجمات من مترجم أول فى ادارة الجرائد الرسمية ١٨٨٨ الى مترجم مجلس النظار ١٨٩٢ الى سكرتير ثان لمجلس النظار ١٨٩٩) الى خطته فى الترجمة فى مقدمة كتاب « تاريخ المشرق » حيث قال :
« بذلت فى تعريب الخريط ، وضبط أسماء المواقع الجغرافية عناية وتعبا ، لا يشعر بشيء منهما ، الا من كابد مثل هذا العمل الشاق ، الذى يوجب ضياع الأيام بحثا فى المطولات المتنوعة ، والتراجم المتعددة للوقوف على حقيقة اسم واحد ، خصوصا وإن هذه الخريط أغلبها يختص ببلاد الشرق ، وقد نقل الافرنج أسماءها محرفة مشوهة أو تعارفوها مختلة معتلة فكان ارجاعها الى أصلها موجبا لتعب كبير ، قد لا يخلو الخائض عبارة من الزلل والتقصير » .

وفى كتاب « الرق فى الاسلام » تحدث عن عمله فى الترجمة فأبان أنه حافظ على المعنى تمام المحافظة ، مع مراعاة القواعد الانشائية العربية والأساليب القولية الكلامية التى تجعلها أهلا للقبول عند الناطقين بالضاد فى جميع البلاد . وأبرز ما فى هذه الترجمات اللغة العربية الدقيقة ، فالمؤلف قادر على الأداء باللغة العربية ، وهو فى نفس الوقت قادر على استيعاب النص .

وقد علق على هوامش الكتب بشروح وحواش (تاريخية وجغرافية ولغوية) أضاف بها كثيرا من التفاصيل وجلا بها كثيرا من الغوامض ، وهى حواش « ضمت كثيرا من الفوائد المشتتة فى كتب العرب مما اعتاد الناقلون من ألسنة الأعاجم فى هذا الزمان اهمالها » .

وفى كتاب « الرق فى الاسلام » عنى بمراجعات حول الآيات القرآنية والأحاديث والنصوص الفقهية .

ولم يجد كتاب (تاريخ المشرق) من نقد المقتطف غير أن المؤلف كان قليل التدقيق أحيانا فى الترجمة والتحرير ، وأنه ترك ما كتبه المؤلف من فخر زائد بنسبة الفضل فى البحث عن آثار الشرق الى فرنسا وقال أنه كان يجمل بالذين وقفوا على هذا أن يحذفوه أسوة بنا فعلوا عندما حذفوا تاريخ بنى اسرائيل » .

ولم يفت أحمد زكى أن يواصل طريقه فى الهوامش حين ترجم القصتين اللتين نشرتهما الجريدة ، فأخذ يضيف معلومات لغوية وتاريخية على هامش الرفر ، وفى هذه الهوامش فائدة كبيرة

حيث يعرض المؤلف للكلمة الفرنسية وترجمتها باللغة العربية .
ومما يذكر في هذا الصدد أن بعض هذه الكتب كانت تترجم
لتقرر على الطلاب في المدارس ، ومن ذلك كتاب تاريخ المشرق
الذي ترجمه بتكليف من يعقوب أرئين وكيل نظارة المعارف ،
وقد عاد زكى باشا بعد ذلك بسنوات طويلة فأشار الى أن في
هذا الكتاب أخطاء وتحريفات ، وهكذا كان تاريخ مصر يكتبه
الأجانب من وجهة نظرهم ، ويفرض على الطلاب دون تصحيح
لما يرد فيه من مغالطات الا بعد سنوات طويلة .

٢ - التأليف

أما جانب التأليف عند أحمد زكى فهو أكثر اتساعا ، وإن كانت مؤلفات أحمد زكى باشا لا تعدو أن تكون أبحاثا صغيرة محدودة ، وهى فى مجموعها أشبه بالتقارير ، وقد توقفت تماما عند ١٩١٢ ، فلم يصدر بعد ذلك مؤلفا ، واكتفى بالفصول التى كان ينشرها فى الصحف .

وقد بلغت هذه المؤلفات — وكلمة مؤلف هنا تستعمل تجوزا — ٣١ كتابا أحصاها « كرد على » فى مجلة المقتبس عام ١٩١٢ .

وأغلب هذه الأبحاث قطاعات من التاريخ ، أراد أن يكشف بها بعض الجوانب الغامضة ، وقد تعمد أن يؤلف بعضها بالفرنسية كالخراع البارود ، وبلاد الفيوم ، وتسامح المسلمين ، والفنون والصنائع الاسلامية فى مصر ، وعلاقات المصرية بالأندلسية ، وأهل الكهف ، وسرايدب الخلفاء الفاطميين ، والطيران فى الاسلام ، والتجارة فى الاسلام ، ومواساة العميان ، والعرب واكتشاف أمريكا ، وبقايا العرب الخالدة فى أوروبا .

وبعض هذه الأبحاث محاضرات ألقاها أحمد زكى فى الجمعية الجغرافية التى كان عضوا فيها أو فى مجتمعات أخرى .

وله كتابان عن رحلتين هما : (السفر الى المؤتمر) وهو قصة رحلته الى أوروبا وأسبانيا عام ١٨٩٢ لشهود مؤتمري

المستشرقين في باريس ، والثاني (الدنيا في باريس) وهو عن معرض باريس ١٩٠٠ .
وتضم هذه الأبحاث تخطيطا لعمل زكى باشا في مجال احياء التراث العربى مثل كتبه :

- * موسوعات العلوم العربية .
 - * تقرير عن الكتب التى خلفها العرب بالأندلس .
 - * الوسائل الموصلة الى احياء الآداب العربية بالديار المصرية.
 - * الترقيم وعلاماته باللغة العربية .
 - * قاموس الجغرافية القديمة .
- ثم هناك خطبة في افتتاح الجامعة ، ودروسه عن الحضارة الاسلامية التى ألقاها عام ١٩٠٨ ، وتبدو في هذه المؤلفات معالم اتجاهات أحمد زكى في مختلف ميادين الفكر التى خاضها خلال حياته كلها وخلال عشرين عاماً بعد هذه الكتب وهى :
- * احياء التراث العربى .
 - * التحقيقات التاريخية والجغرافية واللغوية .
 - * الرحلة .

ويعد (قاموس الجغرافية القديمة) الصادر سنة ١٩٠١ من أهم هذه الأعمال وهو علامة على أعماله المتصلة بعد ذلك في ضبط الأعلام العربية وايراد ما يقابل الأعلام القديمة من أسماء ، وتصحيح لعشرات من الأعلام التى حرفها الافرنج ومسحوها ، وظل أحمد زكى يعمل على تصحيحها حتى اللحظات الأخيرة من حياته ، وقد رد كثيرا من الكلمات الى أصولها كالمدينة المسماة

عند الافرنج (موبسوبوست) فانها بالعربية (المصيبة) والجهة
المسماة (رد كاسين) فانها بالعربية (رأس التين) وجبل (أرارات)
فانه في العربية جبل الحرث ، ومدينة (الأييد) أو العبيد فانها
بالعربية (الأبيض) .

وفي هذا الكتاب أعلن أحمد زكي أنه يعد معجما كبيرا وافيا
في هذا الموضوع (وأنه اذا نال هذا استحسانا فان ذلك سيثدد
عزيتى لابرار المعجم الكبير الوافى الذى جمعته في هذ الموضوع
المعقد) .

ومع أن الكتاب لقى تقدير مختلف الدوائر فان أحمد زكى
لم يخرج معجبه الكبير حتى توفى ، وما زال مدفونا في غرفة
مظلمة في عيادة الدكتور زكى بدر بجوار وزارة الأوقاف حتى
الآن ، وربما الى أمد طويل .

وقد انتقد (حبيب غزالة) اسم الكتاب (المقتطف مجلد ٢٦
سنة ١٩٠١ ص ٥٣٧) وقال انه لا يحسن اطلاقا التسمية بوجه
التعميم (ان جميع ما حواه القاموس انما هو أعلام قديمة أصلها
مصرى أو فنيقى أو يونانى مكتوبة فقط بالحروف اللاتينية
التي هى حروف كل اللغات الأوروبية ، كما أورد له عددا من
التصحيجات (مقتطف يونيو ١٩٠١) .

وان كان قد أشار الى أن القاموس لا يستغنى عنه عالم أو
أديب وأنه من الضروريات وأن اللغة العربية كانت في حاجة الى
قاموس من هذا النوع .

ويمثل كتاب (موسوعات العلوم العربية) الصادر سنة ١٨٩١

خطة أحمد زكي في العمل من أجل الكتب ، فقد بحث مزيا علم (البيلوغرافيا) وهو علم وصف الكتب واتقان الاfrنج له ، وأسماء الذين فتحوا بابه من المؤلفين في اللغة العربية أمثال صاحب الفهرست ، وصاحب كشف الظنون ، كما عرض كلمة (انسكلوبيديا) وتعريفها وقد اختار لها كلمة (موسوعات العلوم) التي أطلقها من قبل « الملا حسن بن مصطفى » على كتابه « مفتاح السعادة » .

وأفاض أحمد زكي في التحدث عن الموسوعات العامة ، ووصف كتاب « احصاء العلوم وترتيبها » لأبي نصر الفارابي ، وكتاب وصف العلوم وأنواعها لأبي حاتم البستي وطبقات العلوم لنابوردي ، وحدائق الأنوار للرازي .

كما تحدث عن الموسوعات الخاصة ، ووصف كثيرا من الكتب الجامعة لأشتات العلوم ، وتطلع الى طبع هذه المؤلفات . وفي ختام الكتاب تحدث في فصل مسهب عن رسائل اخوان الصفا ، وقد نفى أنها من تأليف المجريطي ببيان واف .

وقد دعا أحمد زكي باشا في كتابه الحكومة الى تخصيص مبلغ من المال لطبع ما لم يطبع من هذه الكتب قبل أن يسلب من البلاد الشرقية أو تحل به نكبة أخرى من نكبات الزمن » ، وقد جاءت هذه الدعوة عام ١٨٩١ وتحققت عام ١٩١١ .

واعتقد أن لأحمد زكي أبحاثا أخرى لم يضمها هذا الثبت منها (ملحق الأغاني) الذي جمع فيه ما فات صاحب الأغاني ومن جاء بعده (وهو لم يطبع) .

ورسالته عن مجالس « المعدادات والندابات » في مصر ، وهو الموضوع الذى قدمه الى مؤتمر المستشرقين ...
وقد حاولت الحصول على هذه الرسالة غير أننى لم أجدها في دار الكتب وقد جمع أحمد زكى أشعارهن ومراثيهن ، وقال :
هذا الموضوع يحفوف بالهموم والأحزان ، ولكن البحث فيه يكشف القناع لأرباب الاطلاع من علماء الأخلاقيات على بعض أمور تهمهم ...

ربما كان نساء العامة في مصر المتفردات بالعمل بهذه المواعظ البالغة ومراعاتها بكل دقة ، كأنما هى فرض من الفروض ، وذلك لأنهن في كل خميس (وهو يوم تجدد الجداد) يتجمعن زرافات زرافات ويسعين في بعض أزقة العاصمة ساكنات ساكنات كأنما على رؤوسهن الطير حتى يصلن الى دار صديقتهن التى طرق الموت بابها ، واختطف واحدا من أربابها وكلهن يتدثرن بملابس سوداء ، ويضعن على رؤوسهن مناديل زرقاء ، فان ذلك هو اللبس الرسمى المقرر عندهن في مجالس العزاء .

وأشار زكى باشا الى أن المعدادات والندابات في مصر طائفة منتظمة ما زالت محافظة على مالها من الخطوة والتأثير ، والمرأة منهن تشابه غيرها من النساء ، ولكنها متى تفرغت لوظيفتها دبت فيها حياة أخرى ، وظهرت في نشأة ثانية بمظهر جديد .

وقال : ان الذى دعانى للاهتمام بهذا الموضوع ما رأيته من عناية أهل البحث والتدقيق من الافرنج بكل ما له صلة بأحوال المشرق ، ولما كان كثير منهم قد يقع في الخطأ ويجعل للأمور عللا

وأسبابا يعزوها الى الدين الاسلامى عن قصور فهم أو تباذر
الى مخيلته بحسب ما يصوره له الوهم من غير أن يكون له من
المعرفة .

فقد أجبت أن أستوفى فى هذه النبذة كل ما وصل اليه
علمى من بعض عادات قومى فضلا عن الفائدة الأدبية الجليلة ،
وهى المحافظة على الأشعار التى تبوح بها المعدادات والندابات أثناء
الثناء ، فان فى كثير منها معانى دقيقة وأفكارا حكيمة ، قد
لا يجدها الباحث فى المراثى الشهيرة التى يعمل الشعراء فيها
فكرتهم ويمضون الأوقات الطويلة فى سبكها ... » .

وقد جمع أحمد زكى فى هذه الرسالة أكثر من ألفى بيت من
مراثيهم ولا تزال هذه الرسالة مخطوطة لم تطبع .

وليس شك فى أن مؤلفات زكى باشا فى هذه الفترة — وهى
لا تمثل كل اتجاهه ولا تطور تفكيره وآرائه من بعد ، تعطى
صورة واضحة لمقدرته الفكرية وتطلعاته العلمية . فهى تمثل جميع
الجوانب التى خاضها أحمد زكى بتوسع : تحقيق التراجم ،
والمدن والجغرافيا ، والتوسع فى الدعوة الى أمجاد العرب
والكشف عن تراثهم . وفيها صورة رحلاته وأصدقائه ومعارفه
وجوه العلمى كله .

ويمكن القول بأن أسلوبه فى الكتابة فى هذه الفترة قد غلب
عليه السجع والزخرف وهو ما لم يتخلص منه أحمد زكى الى
آخر أيامه تخلصا نهائيا ، وان تخفف منه كثيرا .

وفى كتابة الرحلة حاول أن يدخل أسلوبا جديدا لم يكن

معروفا من قبل وهو الفكاهة والسخرية والانطلاق بالقارئ في أجواء بعيدة عن البحث العلمي الصرف . وتلك سنة سار عليها من بعد . ايماننا منه بأن الأبحاث العلمية الخالصة تزعج القراء في الكتب أو السامعين في المحاضرات فتصرفهم عنها . لذلك كان حفيا بأن يضيف شيئا من توابل الفكاهة والسخرية وادخال روح المرح على القارئ والسامع دون أن يتعدى بذلك نطاق العلم أو يؤثر في منطق الحقائق العلمية ذاتها .

وقد نشأ أحمد زكى في بيئة السجع والزخرف المعروفة في أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنه لم يكن عبدا لهذا النهج . فقد أعاته ثقافته الفرنسية — بالإضافة الى طلوع فجر الأسلوب الجديد الذى عرف به محمد عبده وإبراهيم المويلحى وعبد الله فكرى وغيرهم — الى أن يتحرر أسلوبه رويدا وأن يأخذ طابعا خاصا عرف به ، قوامه الدغابة والعاطفة في طريقة العرض وربما كانت الحساسية غالبية على المضمون دائما ولكن مع ايراد الأسانيد والمصادر العلمية .

ولا شك تعطى مؤلفاته حتى عام ١٩١٢ — وهى فى الأغلب — كل ما طبع له الا النادر القليل مما لم نصل اليه — تعطى صورة العالم الباحث المنطلق الى غاية كبرى قوامها :

* اطلاع علماء الغرب على حقيقة لا شك فيها وهى سبق العرب وفضلهم فى كثير من المجالات ولذلك كانت أغلب هذه المؤلفات بالفرنسية أو بالفرنسية والعربية وكان هدفة من ذلك أن تصل الى هؤلاء العلماء بلغتهم .

- * إبراز جانب الاهتمام بالمخطوطات والاحياء الأدبي للتراث العربي .
- * تصحيح أسماء الأعلام والأماكن والمواقع التاريخية والجغرافية .
- * العناية بجوانب التاريخ العربي الاسلامى واللغة العربية.
- * اصلاح المطبعة وادخال الترقيم .

مؤلفات أحمد زكي

كما أوردها « كرد على » في مجلة « المقتبس » سنة ١٩١٢

- ١ — موسوعات العلوم العربية ، وبحث على رسائل اخوان الصفا .
- ٢ — الدنيا في باريس (رحلة معرض ١٩٠٠) .
- ٣ — السفر الى المؤتمر (رحلة أوربا ١٨٩٢) .
- ٤ — بحث عن اختراع البارود والمدافع وما قاله العرب في ذلك (بالفرنسية) .
- ٥ — نقد العهدة النبوية (الموجود صورتها في دير الطور) بالفرنسية .
- ٦ — بيان الوسائل الموصلة الى احياء الآداب العربية بالديار المصرية (بالفرنسية) .
- ٧ — بحث في طريقة احياء الفنون والصنائع الاسلامية بديار مصر (بالفرنسية) .
- ٨ — تقرير عن الكتب التي خلفها العرب بالأندلس .
- ٩ — بحث في الترجمة العربية لكتاب الفيلسوف بمسطوس الذي حاول تجديد الوثنية وعبادة الأصنام (بالفرنسية) .
- ١٠ — بحث عن الفيوم وبلاده في أيام الأيوبيين (بالفرنسية) .

- ١١ — كلمة عن محمد على الكبير بمناسبة عيدہ المئوى .
- ١٢ — سيرة فخرى باشا .
- ١٣ — سيرة رياض باشا .
- ١٤ — تسامح المسلمين مع أهل الأديان الأخرى (المقتبس) .
- ١٥ — الترقيم وعلاماته باللغة العربية .
- ١٦ — غرام العرب بالكتب (المقتبس) .
- ١٧ — قاموس الجغرافيا القديمة .
- ١٨ — بحث فى علاقات المصريين مع الأندلسيين (بالفرنسية) .
- ١٩ — تحقيق جغرافى تاريخى عن أهل الكهف (بالفرنسية) .
- ٢٠ — دروس فى الحضارة الاسلامية .
- ٢١ — خطبة افتتاح الجامعة المصرية .
- ٢٢ — فى الأسباب التى ارتقى بها الإسلام .
- ٢٣ — تاريخ المشرق فى الأزمان القديمة (بالفرنسية) .
- ٢٤ — بحث عن سراديب الخلفاء الفاطميين بالقاهرة (بالفرنسية) .
- ٢٥ — الطيران فى الإسلام (بالفرنسية) .
- ٢٦ — محاضرة ارتجالية عن التجارة فى الإسلام (المقتبس) .
- ٢٧ — محاضرة عن الشام والحرية (المقتبس) .
- ٢٨ — بحث عن مؤساسة العميان فى دول الإسلام (بالفرنسية) .
- ٢٩ — مصر والجغرافيا (عن الفرنسية) .
- ٣٠ — العرب وأمريكا (محاضرة) .
- ٣١ — بقايا العرب الخالدة فى أدونة والدلائل اللغوية المؤيدة لذلك .

ومع ضخامة عدد هذه المؤلفات فانها عبارة عن كتيبات وقطاعات مختلفة من الأبحاث لا تمثل عملا أدبيا ضخما كما كان يتوقع أن يقوم به أحمد زكي غير أن أبحاثه التي نشرها في الصحف والتي تبلغ أكثر من ألف مقال وبحث يمكن أن تكون موسوعة ضخمة في تحقيقات التاريخ والجغرافيا واللغة .

٣ - إحياء التراث

هذا هو العمل الضخم الذى وهب له أحمد زكى نفسه منذ مطلع حياته ، والذى بذل له من اهتمامه وماله كل ما يملك ، وفوق ما يملك . فقد ظل مدينا من جراء شراء الكتب . وقد كان هذا العمل متمثلا فى الحصول على المخطوطات العربية من روائع التراث العربى المفقودة ، التى حملها الغريون معهم من الشرق بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد اخراج العرب منها ، هذه المخطوطات التى تعد بالألوف ، والتى هربت الى الغرب ، وتجمعت فى مكتبات عواصم أوروبا ، والتى سبق المستشرقون والباحثون الغريون الى تحقيق عدد كبير منها ، وطبعها بعد اعداد فهارس مفصلة لها ، دراسات شاملة عن موضوعها ومؤلفيها .

وقد رأى أحمد زكى بعض هذه المخطوطات التى طبعها المستشرقون ، وتطلع الى أن يقوم بمثل هذا العمل ، وامتثلت نفسه بالرغبة فى أن يقوم بالبحث عن هذه المخطوطات ومراجعتها وتنقيحها وطبعها ، كما امتثلت نفسه بإحساس صادق بالغيرة على هذا التراث الضخم المفقود ، والمتناثر فى مكتبات الغرب دون أن ينتفع به أصحابه وأحفاد كتابه .

من أجل هذا ملأت نفسه الرغبة فى أن يقوم بجهد فى هذا الاتجاه ، واستهل جهده هذا حين قدم لمؤتمر المستشرقين فى لندره عام ١٨٩٢ عشرة كتب قديمة نقحها وصححها .

وقد أتيح له أن يزور مكتبة الأسكوريال خلال زيارته
لأسبانيا (الفردوس الاسلامى المفقود) وأعد تقريراً شاملاً عن
هذه المؤلفات .

ومضى أحمد زكى يواصل عمله ذلك من خلال رحلاته المتوالية
الى عواصم أوروبا وحضوره مؤتمرات المستشرقين وزيارة دور
الكتب فى باريس ولندن وأثينا ، وينفق من أجل الحصول على
نوادير التراث العربى .

وقد استطاع بعد الانقلاب العثمانى عام ١٩٠٩ أن يسافر الى
الآستانة وأن يحقق نجاحاً كبيراً فى هذا المجال ، كما استطاع بنفوذ
صديقه المرحوم حسن حلمى باشا الصدر الأعظم أن يدخل قصر
أندرون ، حيث توجد أنفس خزنة للكتب . هذه الخزنة التى
كان محظوراً على أفراد الشعب أن يدخلوها ولم يدخلها سوى
ال خليفة ، حيث يوجد ما وصفه أحمد زكى بنوادير الجواهر
وغوالى الذخائر بعد أن كانت موصدة فى وجه الجميع ، منذ أربعة
قرون وستة أعوام .

وقد أقام أحمد زكى فى هذه الخزنة أربعة شهور متوالية ،
ومعه — على حد تعبيره — جيش من المصورين بالفوتوغرافية من
أتراك وأرامنة وأروام .

وهكذا واصل أحمد زكى عمله فى سبيل البحث عن المخطوطات
وأحياء التراث ، وهى المهمة التى جرد نفسه لها ووصفها بقوله :
« ما كان يرتضى بشئ سوى ما فيه تصديق الدماغ ووجع القلب
وتعب العين فى التوفر على مغازلة الكتب المخطوطة » .

وكان اتجاهه الى استخدام التصوير الشمسى فى نقل هذه المؤلفات عملا جديدا خطيرا لم يسبقه اليه سابق من العرب . ولم يمض الا القليل حتى استطاع أن يقدم مشروع احياء الآداب العربية الى وزير المعارف (أحمد حشمت باشا) الذى كان حفيا بهذا العمل مقدرا له ، كما قدم كشفا بأسماء الكتب التى تتخذ نواة للمشروع .

واستطاع أن يجعل مجلس النظار يعتمد للمشروع ٩٣٩٢ جنيها فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٠ ، وذلك لاحراز واستنساخ وطبع ٢٧ كتابا من المخطوطات العربية ، على ما جاء فى مذكرة أحمد زكى بك السكرتير العام لمجلس النظار ، التى تقدم بها لرئاسة المجلس والمحالة على وزير المعارف سعادة أحمد حشمت باشا « . وبرز مشروع احياء الآداب العربية ، وصار من حق المجلس الأعلى لدار الكتب الاشراف عليه ، وفعلا بدأت العمل بطبع موسوعتى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى « ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمرى .

ومضى أحمد زكى يعمل من أجل مشروعه عملا متواصلا ، وتوالت أسفاره ورحلاته الى مكاتب استانبول وباريس ، وقد حقق هذا المشروع طبع أكثر من خمسة وخمسين مؤلفا وتوقف . يقول محمد كرد على « أنه أحب أن ينفرد وحده بهذا العمل ، ولما كان يجب التدقيق ولا يثق بتحقيقات غيره أبطأ بالطبيعة فى اخراج العمل فاسترجع المبلغ .

ولكن زكى باشا مضى فى عمله ، فنقل بضعة عشر ألفا من

الكتب بالتصوير الشمسى ومضى يحقق هذه الكتب ويراجعها ويقدمها للطبع ، بعد التنقيح والاعداد ، مضافا اليها تعليقات وشروح .

وبلغ من اهتمامه أنه سافر الى فلسطين ، ومعه مسودة (مسالك الأبصار لابن فضل الله) فكان يقرأها على بعض علماء القدس الأثريين ، ويقارن بين ما ورد فيها من وصف آثار القدس وما هو موجود اليوم .

كما أنه أثار في مؤتمر المستشرقين في أثينا سنة ١٩١٩ مسألة هامة في تحقيق التراث ، وهى أمانة النقل عن الأسلاف ، وحل يجوز لطابع كتبهم القديمة أن يتصرف في نقله بالحذف والإصلاح والتهديب أو يبقى الأصل كما ورد ، واستقر الرأي على ضرورة بقاء كتب التراث على حالها الأصلية .

وكان زكى باشا قد طبع كتاب (نكت الهميان في نكت العميان) فأثار ذلك ضجة لما ورد فيه من عبارات اعتبرت مكشوفة لا تلائم آداب العصر ، كما كاشف العلماء في احدى هذه المؤتمرات بكتاب (الأصنام) لأبى المنذر هشام بن محمد ، وأطلعهم على كتاب مفقود ولا توجد منه الا هذه النسخة .

ومضى زكى باشا في كل مكان يبحث فوجد في دمشق كتاب « مثالب العرب » لابن أبى المنذر ، وفي اليمن أحرز كتاب الاكليل للهمذاني .

وقد أثار ت مختلف المخطوطات التى أحياها زكى باشا وطبعها اهتمام الباحثين ، فقد قدم لهذه المؤلفات بدراسة عن المؤلف

وسيرته وتآليفه ، وعن الأعلام الذين وردت أسماءهم في الكتاب ،
وعلق على الكتب تعليقات تاريخية وشرح لغوية .

وكان في مقدمة هذه الكتب : الأدب الصغير لابن المقفع
سنة ١٩١١ م وكان قد نشره نقلا عن مخطوط ظفر به في إحدى
مكتاب الآستانة ، كما نشر كتاب الأصنام لأبي المنذر هشام بن
محمد بن سائب بن بشر الكلبي ، وكان لبعث هذا الكتاب أهمية
كبيرة ، وقد ضمنه فهارس وجداول وأتبعه بأسماء الأصنام التي
لم يذكرها ابن الكلبي .

ومن هذه المخطوطات التي أثارت مناقشات متعددة ، كتاب
التاج في أخلاق الملوك ، الذي نشره عام ١٩١٤ ونسبه إلى
الجاحظ ، وخدمه من حيث التعليق على متنه ، وتحقيق رواياته ،
وإثبات أجدرها بالاعتماد ، وتفسير مبهمات ، مع مقدمة باللغة
الفرنسية ذكر فيها فضائل الجاحظ وقال انه في الأدب العربي
كفولتير ورينان في الأدب الفرنسى .

مخطوطات نقلها بالصُور لفتنغاني كنواة لمشروع إحياء الآداب العربية

* موسوعات : نهاية الأرب في فنون العرب (لشهاب الدين

النويري) طبع منه ٦ أجزاء .

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (لأبي فضل

الله العمري) ج ١ .

جوامع العلوم لعريفين تلميذ أبي زبيد أحمد بن

سهيل البلخي .

* أدب وبلاغة : الفاخر : للمفضل الضبي .

ديوان الحماسة الصغرى : المعروف بالوحشيات

(لأبي تمام) .

سر الفصاحة : لأبي سنان الخفاجي .

التسهيل بالتمثيل وهو المعروف بتسهيل السبيل

إلى تسليم الترسل ، للحميدى .

رسائل وخطب وأشعار السلطان الناصر يوسف

صلاح الدين الأيوبي .

مجموعة ترسل القاضي الفاضل عبد الرحمن

البيساني ، معروفة بالدر النظيم في ترسل

عبد الرحيم .

• حديث : فنون العجائب (فى الحديث) .
اكرام الضيف .

• آداب الملوك : كتاب التاج للجاحظ (طبعه بتحقيقات وصور) .
مجلس الملوك للجاحظ .

رسائل الملوك ومن يصلح للسفارة لأبى على
الحسن المعروف بابن الفراء .
تنبيه الملوك وسياستهم فى تدبير الأمم والممالك .

• التاريخ : المغتالون من الأشراف فى الجاهلية والاسلام
لمحمد بن حبيب البصرى .

ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم فى وقائع العرب
والعجم لابن مسكويه ، تأليف أبى شجاع ،
أحد وزراء الدولة العباسية .

درر التيجان ، وغرر تواريخ الزمان ، لأبى بكر
ابن عبد الله بن أيبك الداودارى المصرى .
كنز الدرر وجامع الغرر (له أيضا) .

• التراجم : أنباء الرواة على أنباء النحاة للقاضى الأكرم
الوزير القفطى المصرى .

نزهة الألباب فى الألقاب (لابن حجر العسقلانى) .
التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر (لابن
عريشاه المصرى) .

هدية العبد القاصر ، الى الملك الناصر أبى

السعادات محمد بن السلطان الملك الأشرف ،
لعبد الصمد الصالحى .

سبك النصار وكسب المفاخر وثر الدرر ونظم
الجواهر فى سيرة المعز الأشرف السيقى اقبای
الأسد الظافر ، لعبد الله بن محمد بن عبد الله
الزكى .

✽ النسب : شجرة النسب النبوى الشريف (تأليف السلطان
الملك الأشرف أبى النضر قانصوه الغورى
المعروفة بسلسلة الأنساب .

✽ الجغرافيا : صور الأقاليم الاسلامية : (لأبى زيد أحمد بن
سهل البلخى) بالخرط .

صورة الأرض وصفة أشكالها ، ومقدارها فى
الطول والعرض وأقاليم البلدان ، ومحل العامر
منها ، والعمران فى جميع بلاد الاسلام بتفصيل
مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة اليها
هيئة أشكال الأرض مع صورها بالطول
والعرض .

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : المعروف بكتاب
رجار للشريف الادريسى بالخرط .
رحلة الأمير يشبك الظاهرى وهو أحد جنود
رحلة للجنود المصرية وفتوحاتهم .
كمال الغرض فى دفع السموم وحفظ الصحة

- للقوصوني الطيب في عصر السلطان قانصوه .
- * علم طبيعة : سرور النفس بمدارك الحواس الخمس (لابن المكرم صاحب لسان العرب ابن منظور المصري .
الباهر في علم الجواهر .
الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل .
الدر المطابق في علم السوابق في طب الخيل .
طب الطيور : مستخرج من خزانة الرشيد .
- * المعادن : الجماهر في الجواهر لأبي الريحاني البيروني -
أزهار الأفكار في جواهر الأحمار للتبفاشي شبح
أبي المكرم بن منظور المصري صاحب لسان
العرب .
- * علم الفلك : التفهيم لصناعة التنجيم لأبي الريحان البيروني -
علم الساعات والعمل بها لرضوان بن محمد
الخراساني .
كتاب العود والملاهي : (للمفضل الضبي) .
كشف الغموم والكروب بشرح اله الطرب
(بالصور) .
- * علم الحرب : الغزو والمنافع للمجاهدين بآلات البارود والمدافع
(لابن غانم الأندلسي) (بالأشكال) .
الأنيق في المناجيق (بالصور والأشكال) .
التذكرة الهروية في الحيل الحربية للسائح
الهروي .

٤ ديانات قديمة : فلسفة الوثنيين ، وهى قطعة بقيت من كتاب
تمسطس .

كتاب الأصنام لابن الكلبي (حقه أحمد زكى) .

✽ فنون متنوعة : لطائف المعارف للنيسابورى .

عين السمع مختصر طرد السبع للصالح الصفدى .

الامام بأداب دخول الحمام للقوصونى المصرى .

الكوكب الدرى فى أجوبة السلطان الغورى .

نقائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار ،

لجمعية من العلماء فى عصر السلطان الغورى

وهو من جملتهم .

الترقيق فى العطر : للفيلسوف الكندى .

كتاب الأطعمة المستعملة فى عهد سلاطين المماليك

لمؤلف عيّن نسبه الى أحد ملوك مصر ، ولم

يذكر اسمه .

الوصلة الى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب

(لم يذكر مؤلفه) .

(٥٥) كتابا

٤ — اختصار حروف الطباعة والترقيم

أولى أحمد زكى اهتمامه لجوانب دقيقة ذات أهمية كبرى في مجال تحسين المطبعة العربية ، وادخال انماط جديدة من الحروف والعلامات عليها ، وكان له في ذلك جهد ضخم تمثل في عمل تاريخي ما زال باقيا الى اليوم . فحروف المطبعة العربية التي كانت ٩٠٥ شكلا استطاع أحمد زكى أن يختصرها الى ١٣٣ شكلا شاملة قواعدها في الرقعة والثلث ، وذلك على بعض الروايات . وكان ذلك من المشروعات التي أثارها وأشرك معه فيها حمزة فتح الله ، وأمين سامى بعد أن تبين أن مطبعة بولاق الأميرية ظلت محتفظة حتى أوائل هذا القرن بأشكالها الأولى ، عندما أنشئت في الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

وقد سافر أحمد زكى (السكرتير الثانى لمجلس النظر اذ ذاك) الى أوربا مع شيلوبك مدير المطبعة الأميرية ، حيث طافا مطابع ومسابك استانبول وفيينا وليبزج وبرلين ولندن وأكسفورد. وباريس للنظر في الوسيلة العملية لاختصار صندوق الطباعة ، وتسهيل جمع الحروف ، وقد قام أحمد زكى بعمل تجارب واختبارات يومية في مطبعة بولاق استمرت ثلاثة شهور كاملة ، وجاءت تبيحتها كما عبر عنها المقتطف (أبريل ١٩٠٣) ناطقة بأفصح بيان على أن الطريقة التي اختارها — أحمد زكى — تكفى من كل وجه لجمع أى عبارة عربية أو تركية أو فارسية مهما كانت صعوباتها الخطية والمطبعة وقد نشر أحمد زكى مذكرة

ضافية في هذا الصدد ذكر فيها أنه أمكن الاختصار على ٦٣٢
حرفا و ٤٦ علامة بدلا من الحروف التسعمائة التي تستعمل في
مطبعة بولاق . وأشار الى أن اعتماد الطريقة الجديدة في مطبعة
بولاق سيعود بفوائد كبيرة أقلها حصول وفر في المصنعية لا يقل
عن ٢٥ في المائة .

علامات الترقيم

وكانت لأحمد زكى جولة أخرى فى هذه الميادين البكر ، هى إدخال علامات الترقيم على الكتابة العربية وفق النسق المستعمل فى كتابة اللغات الأوروبية ، وكان القارئ قبل استعمال هذه العلامات — على حد تعبير الدكتور أحمد عيسى — يعتمد دائما فى حركات القراءة والوقوف على الذهن والقريحة ، وليس أمامه اشارات أو علامات ترشده الى ذلك ، وقد يترتب على ذلك أن يعيد القارئ بعض الجمل حتى تستقيم القراءة .

ومن أجل هذا فكر أحمد زكى فى إدخال هذه العلامات ، وقد فصل ذلك فى رسالة أصدرها عام ١٩١٢ جاء فيها :
« دلت المشاهدة وعززها الاختبار على أن السامع والقارئ يكونان على الدوام فى أشد الاحتياج الى نبرات خاصة فى الصوت أو رموز مرقومة فى الكتابة يحصل بها تسهيل الفهم والادراك . ولقد شعرت الأمم التى سبقت فى ميادين الحضارة بهذه الحاجة الماسة فتواضع علماؤها على علامات مخصوصة لفصل الجمل وتقسيمها حتى يستعين القارئ بها عند النظر اليها على تنوع الصوت بما يناسب كل مقام من مقامات الفصل والوصل أو الابتداء الى ما هنالك من المواضع الأخرى التى يجب فيها تمييز القول بما يناسبه من تعجب واستفهام .

وأول من اهتم الى ذلك رجل من علماء النحو من روم القسطنطينية اسمه (ارسطوفان) من أهل القرن الثانى قبل

الميلاد . ثم توفرت أمم الافرنج من بعده على تحسين هذا الاصطلاح واتقانه الى الغاية التي وصلوا اليها في عهدنا الحاضر .
* وأشار الى أن اللسان العربي لا يزال مضطرا رغم آتفه الى التعثر والتسكع على الدوام والى مراجعة نفسه بنفسه ، ومهما بلغ درجة من العلم لا يتسنى له في أكثر الأحيان أن يتعرف مواقع فصل الجمل وتقسيم العبارات أو الوقوف على المواضع التي يحسن السكوت عندها .

ورأى أن الوقت قد حان لادخال هذا النظام في كتابتنا الحالية مطبوعة أو مخطوطة تسهيلا لتناول العلوم .

* وأشار الى فضل « أحمد حشمت » (وزير المعارف اذ ذاك) في تدارك النقص الحاصل في تلاوة الكتابة العربية ونسب اليه الفضل في طلب استنباط طريقة لوضع العلامات التي تساعد على فهم الكلام بفصل أجزائه بعضها عن بعض .

فبدأ زكى باشا بمراجعة الكتب العربية التي وضعها النابغون من السلف الصالح في الوقف والامتداد ورجع الى ما تواضع عليه الافرنج في هذا المعنى ، وما كتبه العلامة (ده ساسى) فوجد أن الطريقة العربية القديمة التي أشار اليها السرنجاوى والشاطبى لا تختلف عن الطريقة العربية الا في جزئيات طفيفة .

واصطاح على تسمية هذا العمل بالترقيم لأن هذه المادة تدل على العلامات والاشارات والنقوش التي توضع في الكتابة وفي تظريز المنسوجات .

وعلامات الترقيم هي :

،	الشولة
؛	الشولة المنقوطة
.	النقطة
؟	علامة الاستفهام
!	علامة الاتفعال
:	النقطتان
...	نقط الحذف والاضمار
—	الشرطة
« ... »	التضييب
()	القوسان

وقال أن (، ، . : ؟ !) لا توضع في أول الكلام .
وأضاف اصطلاحات في كيفية رسم بعض الحروف ووضع
الحركات واختزال بعض الكلمات والجمل الدعائية الشائعة التي
يحذف فيها حرف الألف :

اله	—	الاه
أولئك	—	أولائك
بسم الله الرحمن الرحيم	—	باسم الله الرحمن الرحيم
السموات	—	السموات
هذا	—	هاذا
هؤلاء	—	هاؤلاء

لكن	— لاكن
اللهم	— اللهم
كما أورد صورة الاختزال في الكلمات الكثيرة الشيوخ :-	
الخ	— الى آخره
انا	— أنبأنا
آه	— انتهى
ثنا	— حدثنا
رحه	— رحمه الله
رضه	— رضى الله عنه
نا	— أخبرنا

طريقة الاختزال

وكان من همه أيضا ادخال طريقة الاختزال في الكتابة العربية للمساعدة في نقل الخطب وغيرها بالسرعة والدقة لصيانة الأقوال، عن الضياع ، ووضع لذلك جائزة قدرها خمسون جنيها لمن ينبغي من المصريين في هذا الفن .
ولكنه لم يوفق للعثور على من يحسن الاختزال .

هـ - إصلاح لغة الدواوين

عمل أحمد زكى فى مجلس النظر منذ أن عين مترجما بها عام ١٨٩٢ الى أن أحيل الى المعاش عام ١٩٢٢ ، أى أنه أمضى ثلاثين عاما كاملة فى مجال الرسائل الديوانية ، وقد كان له خلال هذه الفترة أكبر الأثر فى مجال الترجمة وتهذيب لغة الدواوين وتخليصها من العبارات التركية والاصطلاحات القديمة ، وقد كان عمله هذا بمثابة انقلاب فى اللغة الحكومية ، فقد أدخل عشرات من الألفاظ العربية السهلة فى مكان الألفاظ التركية ، أو الألفاظ الأجنبية .

وكان اليه المرجع فى هذه الفترة فى كل ما يتعلق بالرسائل والخطابات الديوانية التى ترد من مختلف الوزارات والمصالح ومشاريع الميزانيات ، ولذلك استطاع أن يؤدى عملا ايجابيا فى مجلس النظر خلال هذه الفترة بإشرافه وتصحيحه وكان لا ينسى يوجه الكتاب فى النظارات المختلفة الى الانتفاع بأسلوبه ومنهجه فى كتابة رسائلهم .

وقد كون مدرسة فى مختلف النظارات تنهج نهجه فى تنحية اللفظ التركى والعامى والأجنبى ، وإحلال اللفظ العربى محله ، وكان الى ذلك يسخر من اللغة العربية المعقدة ، ويتناول طريقة الشيخ حمزة فتح الله وغيره بمزيد من التهكم والنقد . وكان دائما من المؤمنين بتطوير العبارة العربية ، والبعد عن ما أسماه « قعر القاموس » . وقد حمل حملات نارية على

الكتاب الذين كانوا يسرفون في استعمال الألفاظ المغربية ، وكان عمله في تنقيح التراكيب الديوانية جزءا من عمله الكبير في تصحيح الأعلام العربية وأسماء المدن والبلاد .

وقد اقترح أحمد زكي نصوصا عربية لكثير من الكلمات الأجنبية ومن أهمها كلمة السيارة بدلا من (الأوتوموبيل) وكلمة صحافة لتعريب كلمة (Presse) دلالة على مجموع الجرائد ، من باب الجنس ، و (صحافي) للقائم بخدمة الجرائد ، ودراية : للعجلة (البسكليت)^(١) .

وكان قد دعا الى اختيار لفظ (السيارة) عام ١٩٠١ لاستعماله بدلا من كلمة (الأوتوموبيل) التي معناها (المتحركة بنفسها) أو (الجارية من نفسها) وقال ان كلمة السيارة قد تجمعت فيها كل المعاني التي يشملها اللفظ الأفرنكي وكافة الدلالات المقصودة^(٢) .

وقد ذكر زكي باشا في بعض كتاباته من بعد أنه استطاع أن يفرض كلمة (السيارة) وذلك بإدخالها في نصوص قوانين النقل ، وأن يلزم الناس بها بقوة السلطان .

وقد جعل دعوته دائما الغيرة على اللغة العربية ، ووضع الألفاظ العربية بدلا من الكلمات الدخيلة ودعوة الكتاب « للتكاتف لرفع شأن اللغة العربية والسير بها في طريق التقدم العصري ، لتكون وافية بحاجتنا في التفاهم والبيان » .

(١) المقتطف - أغسطس ١٩٠١ .

(٢) نفس المصدر .

وجملة ما يقال أنه كان له أثر بعيد في نهذيب لغة الدواوين وتخليصها من العبارات الركيكة والاصطلاحات القديمة والمسميات الأعجمية وإن له الفضل في الارتقاء بها الى مستوى ممتاز .

وكان لزكى باشا دور هام في أعمال الوثائق السياسية بحكم عمله سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، وقد أشار الدكتور أحمد عيسى الى هذا الدور فقال : انه حين أعلنت الحرب الكبرى عام ١٩١٤ كان أحمد زكى الساعد الأيمن للحكومة فيما تحتاج من وثائق سياسية وأبحاث تاريخية لها اتصال بنظام الحكم ، وترتيب الدواوين ، والرتب والألقاب الديوانية العويصة ، التى لا يمكن أن يقوم بأعبائها الا أحمد زكى ، لفهمه وتدقيقه فى المسائل التاريخية الخاصة بالحكومات الاسلامية^(١) .

وقد وصفه مصطفى عبد الرازق بأنه « كاد يعيد لمصر ديوان الانشاء فى عهد الأيوبيين بروقه وجلاله » .

(١) نفس المصدر .

٦ - عمله في الجامعة

اشترك أحمد زكى في مشروع انشاء الجامعة المصرية (القديمة) وأتيح له بحكم عمله سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، ولكفايته العلمية أن يلى منصب السكرتير العام للجامعة وأستاذ تاريخ الحضارة الاسلامية فيها . غير أن عمله هذا لم يستمر أكثر من عام واحد .

وقد بدأ عمله في الجامعة برحلة الى الشام (فلسطين وسوريا) على طريقة العلماء في التحقيق العلمى ، بالسفر الى حيث الأماكن التاريخية التى تتناولها الدراسة . وقد ألقى محاضرات على طلبة الجامعة في العام الأول عن أحوال الأمة العربية قبل الاسلام . وقد صور الدكتور طه حسين هذه المرحلة من حياة أحمد زكى فقال :

« عرفت زكى باشا منذ نيف وعشرين سنة ، حين افتتحت الجامعة المصرية القديمة سمعت له محاضراته الأولى وأعجبت به حين بدأ المحاضرة قائلاً : أحييكم بتحية الاسلام فأقول : السلام عليكم ورحمة الله .

وقد أعجبتنى جودة ما كنت أسمع بالقياس الى أنا الأزهرى الذى لم يكن يعرف فى ذلك الوقت الا النحو والصرف والمنطق والتوحيد والفقه والأصول .

ثم يريد الله أن ألقى هذا الرجل بعد افتتاح الجامعة بأيام

فأنصرف عنه مبغضا له أشد البغض ، محتقا عليه أشد الحق ،
ويشير طه حسين الى غلامه الأسود الذى كان يدخل معه قاعة
الدرس ، ومنع زكى باشا له ، فلما حدثه فى ذلك قال له :
وماذا تريد من استماع العلم اذا كان الله لم يرد لك أن
تسمعه وحدك .

يقول طه حسين : هنالك هزرت له كفى ، وخرجت من
غرفته » ، ثم يصور دروس أحمد زكى فى الجامعة فيقول :
« كنت منذ ذلك اليوم أسمع لدروس هذا الرجل راضيا عنها
وكارها لصاحبها حتى وقع ذات مساء الى الحديث عن الفتح
الاسلامى ، وأن الغرض منه انما كان الاستعمار ، فهمت أن
أجاده فى ذلك كما كنا نجادل شيوخنا فى الأزهر ، ولكنه ردنى
ردا عنيفا ، ونهنى الى أن الحوار ان كان مباحا فى حلقات الأزهر،
فهو محظور فى غرفات الجامعة ، فأنصرفت الى دارى واجدا عليه
أشد الوجد ، ولم أكد أبلغها حتى كتبت له كتابا شديد اللهجة
قاسى العبارة ، ثم أرسلت الكتاب من الليل ، ونمت بعد ذلك
مستريحا .. » .

وقد أشار الدكتور زكى مبارك — وكان من تلاميذه فى
الجامعة المصرية القديمة — الى أنه كان الخطيب الثالث فى حفل
افتتاح الجامعة بمحكمة الاستئناف فى ديسمبر ١٩٠٨ ، وقد سبقه
قواد وثروت .

وأنه أول من اشتغل بالتدريس من بين الأعضاء المؤسسين
وقال مبارك انه بدأ محاضراته على هذا النحو :

« جل ما يصيبكم مما أحمله اليكم من العلم بهذه المحاضرات هو ضوء مصباح يضيء لكم مواضع أقدامكم فتبصرون الطريق التي تسلكونها للوصول الى الغاية المطلوبة ، وما المعلوم الا مرشدون وهادون ، فعليكم بالبحث والتنقيب والدرس ومساءلة أهل الذكر فان النبوغ في الفنون لا يكون الا بهذا ، فالمدارس مهما علا شأنها ونمت منزلتها لا يمكنها أن تعلم الناس النبوغ في الفنون ، وانما منتهى ما تصل اليه الجامعات التي هي أرقى مدارس الهيئة الاجتماعية انما هو هداية الطلاب الى طريق النبوغ » .

وقال مبارك « انه أشار في محاضرة أخرى الى ضرورة الرجوع الى الصواب اذا ظهر — على حد تعبيره — والذي يفضل به بعض الناس بعضا انما هو قلة الخطأ ، والرجوع الى الصواب متى وضحت محبته ، وأضيئت منارته ، والانسان لا يعلم أنه مخطيء حين يخطيء ، ولا بد أن ينبه بعض الناس بعضا الى الخطأ » .
وأشار زكي باشا الى أنه زار الشام قبل أن يحدث الطلبة عن حضارة الأمويين وقال تعليقا على ذلك « أردت واني أحد أساتذة الجامعة المصرية أن أحيي أكبر سنة من سنن سلفنا الصالح وهي الرحلة في طلب العلم لاقتناص فوائده وجمع شوارده بالبحث والمشاهدة ومشاهدة أهل الذكر ، فاعتنمت الفرصة لأضم الى علمي الكتابي الضئيل علما حسيا أشاهده بعيني وأسمعه بأذني .. » .
ولم يطل عمل أحمد زكي في الجامعة ، فقد كان للسياسة دورها ، وكان خلافه مع الحزب الوطني باعتباره أحد رجال

الخدو في تلك الفترة كان من عوامل أبعاده عنها ، ذلك أن أحمد زكي كان قد ألقى كلمة في المبعوثين المسافرين الى الخارج وطلب اليهم — كما طلب الى أبناء الجامعة — الالتفات الى الدرس وتجنب العمل السياسى كما هاجم الأحزاب السياسية ، مما أغرى به صحف الحزب الوطنى فحملت عليه حملة شعواء اضطرته الى تقديم استقالته من الجامعة ... (١) .

(١) الصحف عام ١٩٠٨ وكتاب الشوقيات المجهولة للدكتور محمد صبرى ص ٢٩٨ ج ٢

٧ - الرحلة من أجل البحث

لا ريب أن « الرحلة » من أجل البحث العلمي من أبرز جوانب حياة أحمد زكي ، وقد امتدت خلال حياته كلها منذ مطالعها حتى آخر رحلاته الى فلسطين قبل وفاته بسنوات قليلة ، وقد أمكن حصر بعض هذه الرحلات ، وإن كنا نعتقد أنها ليست كل رحلاته :

رحلة لندرة وباريس والأندلس (مؤتمر المستشرقين في لندره) .	١٨٩٢
رحلة جنيف (مؤتمر المستشرقين) .	١٨٩٤
رحلة باريس .	١٨٩٩
رحلة باريس .	١٩٠٠
رحلة همبورج (ألمانيا) مؤتمر المستشرقين .	١٩٠٢
رحلة الآستانة وباريس .	١٩٠٤
رحلة الشام (لدراسات الجامعة) .	١٩٠٨
رحلة استانبول (تركيا) .	١٩٠٩
رحلة أثينا (اليونان) مؤتمر المستشرقين ومؤتمر العميان .	١٩١٢
زيارة القدس .	١٩٢٢
الشام وبيت المقدس .	١٩٢٣
رحلة الشام ١٩٢٥ و ١٩٢٤ .	١٩٢٥ و ١٩٢٤
رحلة اليمن ، رحلة باريس .	١٩٢٦

١٩٢٧ رحلة قبرص .

١٩٣١ رحلة المسجد الأقصى (فلسطين) .

والمعروف أنه سافر الى استانبول مرات عدة ، وأن هدف هذه الرحلات يتمثل في أعمال ثلاثة :

✱ حضور مؤتمرات المستشرقين .

✱ البحث عن المخطوطات والآثار العربية .

✱ السفارة من أجل قضايا الأمة العربية .

ولا شك كان لهذه الرحلات آثار بعيدة المدى في تفكير أحمد زكي وحياته وآرائه ودراساته ، فقد أتيج له خلالها أن يزور عشرات من المكتبات وينقل مئات من المخطوطات ويطلع على عديد من المؤلفات ، ويقابل أعلام الفكر في الشرق والغرب ، ويتحدث اليهم ويتبادل معهم المعلومات والآراء في عشرات من المسائل والقضايا في مجال تاريخ الأمة العربية وجغرافيتها والحضارة العربية والإسلامية واللغة العربية وأسماء الأعلام والأماكن .

وقد ظل زكي باشا يتناول أدق المسائل خلال حياته الطويلة ، فيواجهها مواجهة الفاحص العارف ، الذي رأى وشاهد وعرف ، فإذا تناولت إحدى الصحف اسم إحدى مدن الأندلس محرفا رفع صوته بالاسم الصحيح ، وإذا ذكر مكان من الأمكنة أو قطر من الأقطار أو نهر من الأنهار مغلوطا ، قدم زكي باشا البيان الصحيح عن شيء يعرفه تمام المعرفة ، وإذا سرق الفرنسيون

محرابا من أحد المساجد أورد بيانات مسهبة عن صفته وتاريخه ،
وذكر كل ما يتصل به .

وقد اجتمعت له من هذه الرحلات حصيلة ضخمة من
المشاهدات للمساجد والمتاحف والقصور والكنائس ، وأتيح
له أن يصعد فوق قبة المسجد الأقصى ، وقمة الهرم الأكبر ،
ومسجد أيا صوفيا بالقسطنطينية ، ولأعلى كنائس بطرس برومة ،
وبولس بلندرة ، وميدة العمود بسرقسطة .

واحتمل زكى باشا في هذه الرحلات جهدا وتعبا ، وأنفق مالا
كثيرا ، وصادفته عشرات من العقبات والأزمات .

يقول عن رحلته ١٨٩٢ (لاقيت فيها حر أوروبا وحمارتها
كأشد ما يكون ، وقاسيت بردها ، وصبارته فوق ما يقدر عليه
شرقى مثلى تغرب في أوروبا لأول مرة) .

وفي هذه الرحلة زار خمسا من عواصم أوروبا ، وهى رومة
وباريس ولوندرة ومديد ولشبونة ، وزار أكثر من أربعين
مدينة زيارة تدقيق وتحقيق ، وتعلم لغة أهل الأندلس حتى توصل
الى الكتابة والخطابة بها « على قدر امكان » .

وزار مناجم الفحم في أوروبا وبلاد الأندلس ، كما زار ثلاث
مدائن مخصصة لطلبة العلم ، وهى أكسفورد في انجلترا ، وقلمرية
في البرتغال ، وشلمنقه في أسبانيا وحضر عيد الميلاد في مديد ،
ورأس السنة في لشبونة ، وأكل القول المدمس ، وحضر جلسات
مجلس النواب والشيوخ في فرنسا ، وشاهد قتال الثوار في

أسبانيا ، واعتصاب الخبازين في مرسيليا . والاحتفال بالكرتال
(المرافع) في نيقه ، رورميه ، وغير ذلك .

وقد تحدث زكى باشا عن طرائف رحلاته ، من ذلك ما حدث
له من غفلة عن فروق العملة : يقول لما جئت بلاد البرتغال ونزلت
في لشبونة ، اكرتيت عربة أوصلتني الى الفندق ، ولما نزلت منها
سألت ترجمان الفندق عن الأجرة فقال لى ٦٠٠ ريال ، فقلت في
نفسى هذه الطامة الكبرى ، وكيف أظاهر الآن بتعارف الجاهل
وليس معى ورقة تساوى هذه الثروة الجسيمة ، ومع ذلك تجلدت
وصبرت على مضض الأيام ، واثقت الله لعله يسهل لى سبيل
الخلاص من هذه الورطة ، فقلت له بصوت مبجوح : وهو كذلك
خذ النقود من صاحب الفندق وضعدت الى غرفتى أضرب أخماسا
بأسداس .

ولما أصبح الصباح كان أول شىء طلبته هو الحساب ، فجاءنى
بعشرات الآلاف ، فقلت وأنا خائف واجم ، وكم يساوى هذا كله
من الفرنكات ؟ فقبل ان الفرنك مائتا ريال فكدت آخر الله ساجدا
وصرفت الغلام لأتضرع الى الله بالشكر منفردا .

وقص من طرائف رحلاته أكلة القول المدمس في أسبانيا عندما
رأى بعض النساء يحملن شيئا شبيها بطست نحاس (مفرطح)^(١) ،
جدراناه مرتفعة قليلا ، ففرجتنى على ما فى الطست واذا به القول
المدمس ، ففرحت به كثيرا ، ووطنت نفسى على أكلة مصرية فى
بلاد أوروبا .

(١) هكذا كتبها . وهى مفرطح .

فلما رجع الى الفندق أوصى صاحبه بأن يحضر له مقداراً منه ، يقول « وأردت أن تكون الأكلة مصرية محضة ، وعلى الأسلوب المتبع عند عموم المصريين ، فلبثت في غرفة النوم وأقفلتها بعد أن استحضرت البصل .. » .

أما قصته مع أكلة الضفادع في باريس فيرويها بأسلوبه على نحو مثير : يقول :

« ... فوسوس الى ابليس بالتجربة . وانضمت اليه النفس الخبيثة (وهي أمانة بالسوء) ولكن طبعي بقي مصراً على العناد والنفور . فاشتبكت المحاوراة والمناظرة بين الطرفين ، وأنت تعلم أن « ضعيفين يغلبان قويا » فما بالك اذا كانا من القوة والبأس ، يمكن ابليس والنفس . وكان خصمهما من الضعف بدرجة الطبع ، وكان غالباً فهاهو أصبح مغلوباً .

والخلاصة أنني طلبت الخادم وأمرته باحضار هذا الطعام ، نعم نعم . طلبت هذا اللون ، وأعنى به أبا هبيرة ، أو العلجوم ، فأحضر لي طبقاً في وسطه شيء مشتبك مرتبك ، يشبه العقرب ، سوى أنه أبيض عظام دقيقة صغيرة ، تكسو أطرافها لحوم خفيفة مستديرة ، وكلها على شكل مختلط مختبط يزيد في الكراهة والنفور .

فاصطكت أسناني ، وانطبقت أجفاني ، وحولت وجهي برعدة في رأسي ، فجاء أبو مره وقال لي : جرب هذه المرة في الترك أو معاود الكرة » .

وتأمرت معه نفسي ، فجاءت من الجهة الأخرى تدفعني ،

وتصيح في أذنى ، قد وجب عليك الثمن ، فما بالك لا تمتحن وأنت تعلم أنه عند الامتحان يكرم المرء أو يهان وما زالا يتقآن على هذا المنوال حتى أعدت صفحة وجهى بالتدريج الى تلك الصفحة ثم أغمضت عيني ، ومددت يدي وأخذت قطعة منها وأنا أفكر في الألوان الشهية التي أسمع عنها ، ثم رميت بالقطعة من الضفدعة في فمي ، وصرت أكل قليلا قليلا وأنا أفكر في أصناف لذیذة. قرأت أسماءها في الكتب .

وصرت أكل من الضفدعة بصفقتها ضفدعة حتى أتيت على كل ما في الطبق والحمد لله أولا وآخرا .

ثم أخذ يعلل أكل الضفادع متسائلا عن المانع الشرعى والعقلی ؟ ويعرض لحالات مشابهة ، البدوى يتلذذ بالتهام الجراد، الرفاعية بالثعابين ، الرشيدى يتفكه بأكل أم الخطول ، الاسكندرى يهيم غراما ببراعيث البحر (الجمبرى) ، ساكنوا السويس لهم تجارة كبيرة بالسرطان (أبو جلمبو) الفلاح في الصعيد يصطاد (فأر الغيط) ... « ١ . هـ

وقد صور زكى باشا مشاعره ساعات الانفصال عن الوطن ، فوصفها بأنها بعيدة عن اللوعة ، وأنه من ذلك النوع الذى يجب السفر ويهواه ، وقد خصص بعض أسفاره — على حد تعبيره — لذاته ونفسه ، ولتخته ومسراته . غير أنه ربما انقبض من السفر يوم الجمعة أو يوم ١٣ من الشهر .

يقول في مقدمة كتابه « الدنيا في باريس : أو أيامى الثالثة في أوربا عن رحلته سنة ١٩٠٠ » قد أعلم من نفسى . ويشهد الله

لأن هذا الاكتئاب لم يكن مصدره فراق الأوطان والأصحاب ، بل كنت بعيدا عن معاناة هذه اللوعة ، لأن هذه المرة ليست أول غربة ، فقد بارحت مصر عام ١٨٩٢ ، وعام ١٨٩٤ ، وهذه هي الثالثة .

وقد طبع البارى هذا المخلوق الضعيف القوى على حب الأثرة والميل للأناية ولذلك لم أتعهد التاموس العام ، فخصصت سفرتى الثانية لنفسى وشخصى .

أما اليوم فقد قضى على واجب الجنسية والوطن أن أخدم الناطقين بالضاد فى هذه الرحلة الثالثة ، وهكذا يكون العهد يبنى وبينهم ، عام لى ، وعام لهم ، فمرة أتعبهم وأتعب نفسى ، ومرة أروح بشرط أن أريح وأستريح ..

وقد صور فى كتابه معرض باريس مفصلا جوانبه المختلفة ، ومشاعره تجاه باريس وعظمة الفن والحضارة .

وكان معرض باريس دائما ملتقى أعلام الشرق والغرب من ملوك وأمراء وكتاب ، ومن قبل سافر جمال الدين الأفغانى من الشرق ليشاهد معرض باريس ، ويلتقى بالملوك والعظماء الزائرين له .

وقد وصف أحمد زكى باريس فى رحلته الأولى والثالثة بأنها (فردوس الفرديس) .

وقد ذكر أحمد شفيق فى كتابه (أعمالى بعد مذكراتى) رحلات اشترك فيها مع أحمد زكى ، وكانا قديما من رجال الخديو عباس — منها رحلة باريس ١٨٨٩ ، وذكر كيف ذهبا معا لمشاهدة

ساره برنار فى رواية « غادة الكاميليا » ، وأشار الى رحلة سنة ١٩٠٠ حين سافرا معا ومعهم حسن عاصم باشا (وهو أيضا من رجال الخديو عباس) على باخرة خاصة الى أنقرس . وقد كانت رحلات زكى باشا المتعددة الى أوروبا والأستانة واستانبول تجمع بين البحث عن الكتب والمخطوطات العربية والارتياض ولقاء الأصدقاء والعلماء وحضور بعض المؤتمرات . وقد أثر عن كل البارزين فى هذه الفترة ضرورة الرحلة فى الصيف خارج مصر ، وقد عرف ذلك عن محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد وقاسم أمين وغيرهم ... وكانت رحلاتهم بين استانبول وسويسرا وباريس .

رحلات العالم العربي

أتيج لزكى باشا أن يطوف بالعالم العربي في رحلات متعددة ، الى الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) شمالا ، والى اليمن والحجاز جنوبا ..

كان بعض هذه الرحلات من أجل البحث والاستقصاء العلمى ، والبحث عن المخطوطات وبعضها الآخر من أجل العمل السياسى الذى تفرغ له أحمد زكى بعد عام ١٩٢١ وتصدر ، وعوض به مجدا بمجد ، فقد كان سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، فلما استقال (أشبه بالاقالة) عوض ذلك بأن أصبح شيخا للعروبة ، وزعيما من زعماء العالم العربى الذين يشركون فى كل قضاياها .

وفى الشام كانت زيارته عام ١٩٠٨ و ١٩٣٤ من أجل الدراسات التاريخية وقد طوف فى مختلف العواصم دمشق ، حمص ، حلب ، وكان كبير الاهتمام بزيارة مرج دابق ، التى انتهت عندها — على حد تعبيره — الامبراطورية المصرية ، والتى قتل فيها صديقه « السلطان الغورى »^(١) عام ٩٣٣^{هـ} و « نصيين » حيث حقق الموقعة الكبرى بين ابراهيم باشا والجيش التركى عام ١٨٣٩ .

(١) لا يذكر أحمد زكى (السلطان الغورى) الا بلفظة (صديقى) ومقصده أنه نقل مكتبته سنوات طويلة الى قبة الغورى ، فالتمس من ذلك معنى الصداقة -

كما زار صيدا للبحث عن كتاب « نهاية الأرب في فنون العرب » وقد صور سامى الكيالى رحلته الثانية الى سوريا ، وكيف يطوف بحلب « وكان وهو يسير في ساحات حلب ويزور جوامعها ومدارسها وأثرياتها كأنما يتفقد عصبة من صحبه الذين عاشهم على صفحات الكتب ، فكان يذكر المتنبي ، ويسأل عن سيف الدولة ، ويتحدث عن الفارابي وابن خالويه ، وأبى العلاء ، والبحترى ، وأبى فراس ..

« ولن أنسى قط ليلة سحر ، كانت أنغام الموسيقى تتراقص في نفوسنا عذبة حلوة وأصوات المغنين تهز القلوب ، وتثير في الأفتدة ذكريات وأحاسيس جميلة ، وكان مرحا شديد الطرب . وأحب أن يسمع أنغاما بلدية بحتة ، فسمع منها ما أعجبه وأرقصه ، وطلب أن ينشدوه قصيدة أبى فراس الحمدانى (أراك عصى الدمع شيمتك الصبر) فلما لم يجد من المنشدين من استطاع أن يغنيها ، ثارت في نفس (الباشا) ثورة عاصفة من الحنق ، وتساءل أيجوز أن تخلو عاصمة الحمدانيين ومدينة الموسيقى والغناء من منشد لهذه القصيدة العصماء .

وأسمعنيها كلها أو أكثرها ، وكان رحمه الله يرقص ويدور عند مقاطع القصيدة ويقول هذا أسمى ما ينبض به قلب حى من الشعر الوجدانى .. » (١) .

وقد زار قلعة حلب القديمة ، وتفرج على أسوارها ومخابئها ،

واستعرض تاريخها القديم ، وكتب الى جنرال الموقع — باعتبار
أن القلعة محتلة من الجيش الفرنسى — اذ ذاك — لافتا نظره
الى ضرورة صيانة أثريات القلعة .

ولما حاول السفر الى (نصيبين) كان الأمن مضطربا ،
والعصابات التركىة تشن الغارة على الأطراف ، ولكنه صمم على
السفر فى جرأة بالغة وقال : ماذا يعمل رجال الغزو معى ، ليس
فى جيبى غير بضع جنيهات وساعة ذات سلسلة ذهبية وثيابى ،
وفى سبيل غايتى مستعد أن أتنازل عن أكثر من هذا ، أما الآجال
فعند الله .. » .

أما رحلة اليمن والحجاز فتدخل فى عمله السياسى . أما الجانب
الفكرى منها فانه حصل على اجازة رواية كتاب « الكامل »
لابن الأثير فى التاريخ مع سلسلة من تلقى الامام عنهم ذلك
الكتاب الى المؤلف .

وقد جاء فى هذه الاجازة « انه لما قدم علينا الانسان الكامل ،
والندب الحلال ، فارس الانتقاد ، والمجلى فى مضمار الاطلاع .
والعرفان المستجاد ، علامة الأدب والتاريخ ، القاعد على منصة
التشيع ، أحمد زكى باشا المصرى الدار ، أتحفه الله بألفاظه
وتوقيفه ... »

« وقد ألفتناه كبير النفس ، على الهمة ، كثير الصبوة
بالبحث عن الحقائق التاريخية والآداب المهمة . ذا يد طولى فى
الوقوف على الحقائق وحسن التنقيب ، التمس منا — عافاه
الله — الاجازة فيما اتصلت لنا روايته من كتب التاريخ وأسفاره

الجبيلة الحافلة بأخبار الصلاح والفلاح وعمارة الأرضين .. » (١) .
وحصل في اليمن على كتاب « الاكليل » للهمداني ، وصوره
في دار الكتب ، كما طوف مدن اليمن ، وراجع تاريخها القديم ،
كما استنسخ ما رأى نفسه في حاجة اليه ، من كتب وجذاذات
مفيدة في أسماء بلاد اليمن وارجاعها الى أصولها القديمة .

وله رحلات الى فلسطين أولاها عام ١٩٣٢ وأهمها عام ١٩٣١
من أجل الدفاع عن البراق الشريف ، قدم فيها تقريرا شاملا دحض
به ادعاءات اليهود الى اللجنة التي استقدمتها عصبة الأمم الى
بيت المقدس لتتولى التحقيق .

ولنترك رحلته السياسية عام ١٩٣١ الى مكانها في تاريخ
المترجم له ، ولنذهب وراء عمله الفكرى ، حين قام برحلته الأولى
ووصل الى أعلى نقطة فوق المسجد الأقصى فوق القبة التي
شادها عبد الملك بن مروان على الصخرة ، الى حيث العمود
الخارجى الذى يعلوه الهلال .

يقول « جاد لى الزمان بفرصة لم يهتبلها غيرى ، وساعفنى
حظ قد لا تتوفر أسبابه لأحد من بعدى ، ذلك أتى كنت فى
القدس سنة ١٩٣٢ عندما شرع المجلس الاسلامى الأعلى فى أعمال
التجديد والترميم ، لمنع تداعياها المتوالى ، ولحفظها من السقوط
النهائى ..

هناك حدثتني نفسى بالصعود الى أعلى ذروة على هذه القبة

(١) مجلة الزهراء م ٣ ص ٣٣٤ .

وكنيت قد بلغت من العمر السنة الثانية والخمسين بالحساب الشمسى ، وكاشفت بهذه الأمنية صديقى ، فتفضل الحاج أمين الحسينى فأرصد جماعة من العمال لمرافقتى . أردت أن أرقى رقىا ما رقتة الأنبياء ، لأن هذه القبة لم تكن موجودة فى أيام الأنبياء . أردت أن يكون لى على قدر قيمتى الضئيلة ، وبنسبة همتى الضعيفة ، معراج على متن الأقدام لأعلى صهوة البراق .

سبقت الفجر الصادق ، فتسللت الى أحساء الشدادات (١) ، وتدخلت فى تضاعيف الروابط ، واندست فى تجاويف (البراطيم) المتشابكة ، والكمرات المترابكة ثم انقلبت الى خارج القبة ، فازدلفت فى مشاة ضيقة ، يحف بها درابزين ضئيل من قضبان الحديد الرفيع ، لا يراها الواقف فى ساحة الحرم ، مهما كان حديد البصر ، فكنت على قول شاعر العرب كريشة فى مهب الريح ، مثل دودة من دود على عود كما قال عمرو بن العاص ، لكننى كنت فى لجة من الهواء ، فى سماء الفضاء وفضاء السماء فلم أر — بسبب الارتفاع الشاهق — سوى خليط من أشباح ضئيلة تطيف بقبة الصخرة ، قبة المعراج ، وفيه السلسلة وما إليها ، كانت متضامنة (٢) الى الأرض ، هى تلك القباب الأنيقة الرشيقة التى كلها كأعجاز نخل خاوية ، فى قرار الهاوية . وتمتعت بالمطاف حول القبة ، ولكننى لم أقنع بهذه الرتبة ، بل حدثت نفسى

(١) الشدادات — أى الأخشاب التى تنصب حول المسانى

لترميمها .

(٢) هكذا كتبها ، والمعنى قرية الى الأرض .

باستكمال الصعود الى نهاية الذروة حتى ألمس بيدي ذلك الهلال ،
هلال القبة ، لا هلال السماء ، فقد كان دخل في المحاق وايتلعت
السماء » .

واستكمل زكى باشا رحلته حتى صعد الى القبة وأشرف
بالفكر على الطور ، وعلى البحر المسحور ، « فكانت مكة على
يميني تناجيني بما يقوى يقيني ، وكانت بغداد أمامي ، ودمشق
عن يساري ، أما البحر فكان من ورائي ، ومن خلفه النيل ، وفي
أقصى الأفق لمحت الفردوس الاسلامي المفقود ، وان في الأندلس
لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .. » .

ولم تكن هذه أول مغامرة جريئة لزكى باشا في رحلاته
وأسفاره ، فقد كان شغوفا بصعود المناورات ، لم يغادر في
الاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس منارا رقيقا الا صعد
اليه ، ولا جبلا شامخا أو مسجدا سامقا أو معبدا شاهقا في أرض
أوربا أو آسيا الا دخله وزاره .

وقد أشار زكى باشا الى هذا فقال « قبل ذلك بأعوام وأعوام
صعدت الى قمة أكبر الأهرام ، أيام كنت أرفل في حلل الشباب ،
أيام كنت طالبا في المدرسة التجهيزية بدرب الجماميز بالقاهرة ،
في تلك السنة المشئومة على مصر ، سنة الاحتلال البريطاني ١٨٨٢
السوداء ..

حقق أحمد زكى مكاسب كبيرة خلال رحلاته . مكاسب
كبيرة في مجال المخطوطات والآثار ، وفي رحلة اليمن استطاع أن
يحصل على عديد من التحف النادرة والدرر الفريدة ، منها رأس

فسقية عجيبة تسمى بالشدروان ، على هيئة هلال المنارة ، يصعد الماء اليها على فروع كهية الشمعدان اذ يحركها الماء المتصاعد من فروعها فيدور بسرعة غريبة .

ومنها شيشة (مداعه) قديمة العهد ، وقنديلان موثيان بالذهب ، ومنها سيف متوسط الحجم يرجع الى ٥٥٠ سنة ، وسبعة أحجار حميرية مكتوب عليها باللغة الحميرية القديمة ، وقنديل تتوسطه ٤ شمعدانات ترجع الى ٤٠٠ سنة .

كما حصل على عدد من الكتب القديمة منها ، كتاب العبر والاعتبار للجاحظ وأجزاء من الاكليل في محامد اليمن للهمذاني ، ومسند الامام ابن عبد الحق وجواهر الاكليل ، وتخريج المذهب . وحصل كذلك على مجموعة من الدنانير القديمة منذ عهد سليمان القانوني .

وقد عثر هناك على عدد من الكتب النادرة ، وكان يرى أن نقلها يتطلب تصويرها وكانت معه « فوتوغرافيا » تركها في ميناء الحديدة اتقاء الريبة — على حد قوله — ولكنه وفق الى مصور مصري في صنعاء رسم له كثيرا من المواقع والخطوط ..

ومن هذه المواقع شباكان في أحد المساجد قال له أهل صنعاء انها تقلا من ألقاض (سد مأرب) .

ولم يستطع السفر الى (منطقة مأرب) نظرا لظروف الخلاف ، ولكنه حصل على حجر كان لدى الامام (يسند به الباب) من حجارة سد مأرب ، وابتاع حجرتين آخريين كانا في أحد المساجد ، واستطاع أن يجمع على الجملة سبعة حجارة عليها رسوم وآثار .

وقد نقل هذه الثروة الى مصر لتحقيق الحروف القديمة .
كما أهدي اليه الامام يحيى ألف حبة من العقيق اليماني ،
وبعض أحجار أخرى ذات قيمة وقد زين بها قبلة مسجده .
وقد خاطب أحمد زكي « العقيق » عندما ورد اليه فقال :
« قد تفتحت بسببك الأشداق ، وسالت الأفواه ، وشرأبت
الأعناق فلا يراني انسان دون أن يطالبني بحجر أو حجرين ،
وما أنا راحم ولا وهو رحيم .. » .
ثم أعلن أنه لا يجوز التصرف في هذه الذخيرة « لغير زينة
المنبر والمحراب ، وأن أحجار العقيق التي قاربت الألف وجاءت
فوق المرام ووراء الأحلام ، هي أجمل حلية يزدان بها مسجدى
الصغير بجيزة القسباط ، كما قد تحلى ظاهره بذلك الحجر الوحيد
الباقى مرقوما منقوشا من قصر غمدان .. » (١) .
ولم ينس زكى باشا في هذه المناسبة أن يذكر أن مدينة
الجيزة ، بناها بنى همدان ويافع ، من كرام اليمن في أول الاسلام .

* * *

وقد صور متاعبه في رحلة اليمن ، ولم ينس التحقيقات
التاريخية :

« بعد ساعة نرسو على الحديدية ، وننزل بها لاستئناف الرحلة
على متون المطايا في حزون التهام ، ثم في شعاب الجبال ..
خرجت من جهنم عدن ، وقد أسفت عليها كل الأسف ، فكان

(١) الاهرام - ١٩٣٣/١٠/٣

